١١٥

روايات أحلام

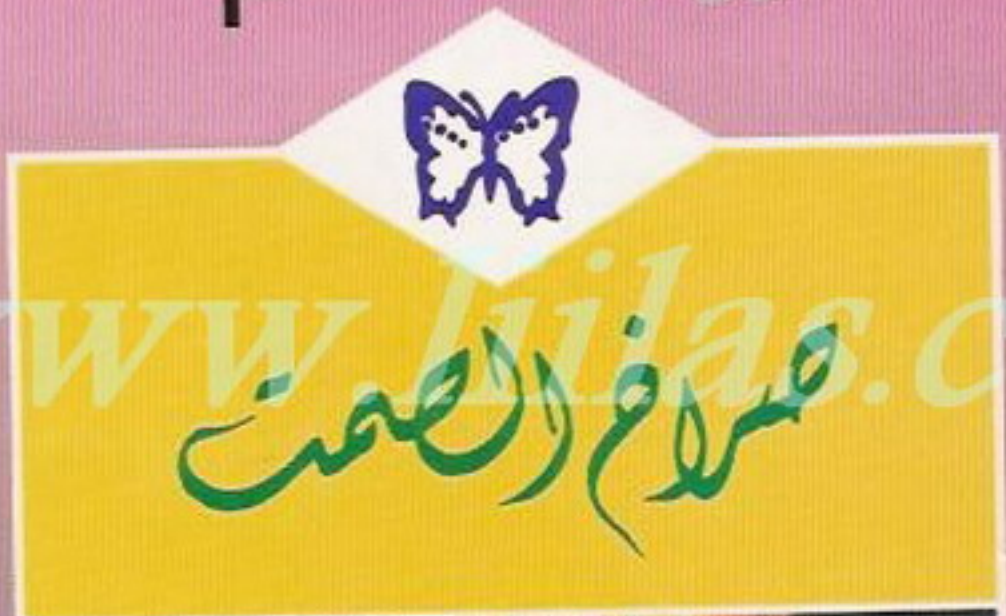

عمر الصمت

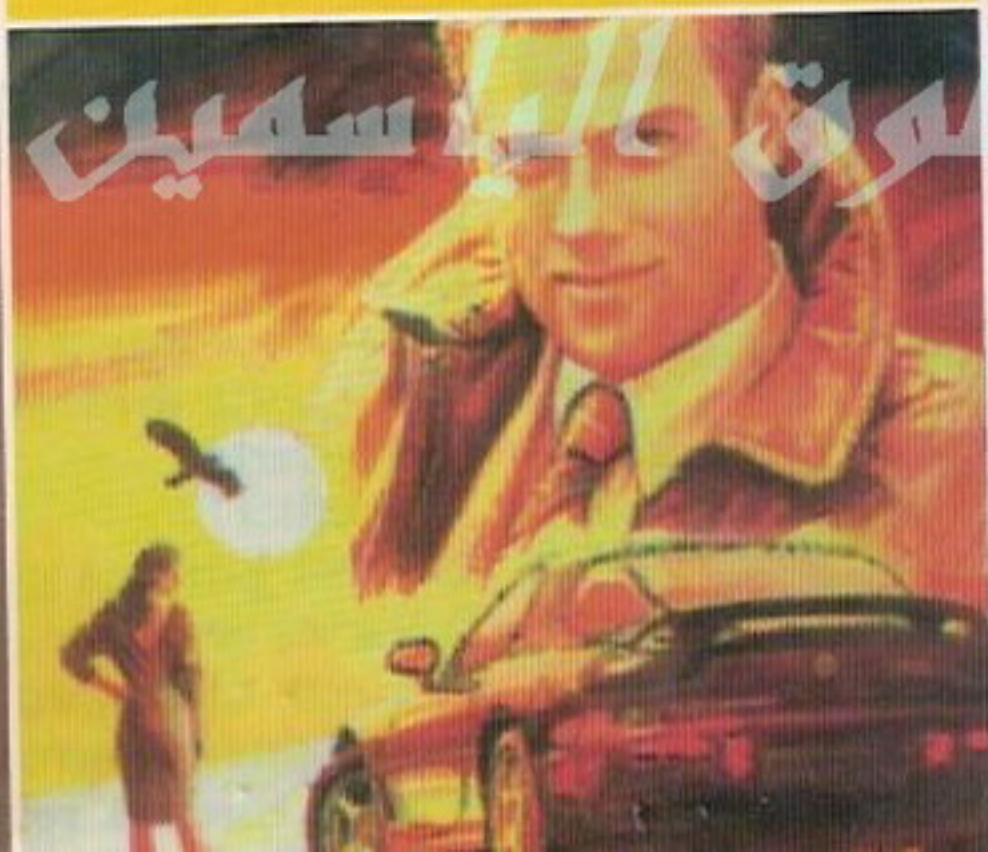

روايات أحلام

صراخ الصمت

- لماذا تقول النساء «لا» في وقت يعنين «نعم»؟

ماذا يحدث لها ؟ إنها تعرف أي نوع من الرجال هو غاي ريتشاردز، وتعرف أن هذا كله لعبة بالنسة له ... لماذا تشعر أن زمام حياتها أفلت من يدها منذ قدومها إلى فرنسا، ومنذ أن التقت عيناها به؟

فجأج صرخ غاضباً : أخرجي من السيارة!

هل يفعل هذا لإذلالها؟ تعثرت وهي تخرج من السيارة تحاول أن تفهم سبب تصرفه...

ما حدث بعد هذا حدث بسرعة هائلة ... وراقبت آيرين بعينين مذعورتين الرجل الذي تلاعب بقلبها يسير نحو الموت دون أن تستطيع فعل شيء...

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل. الإمارات ٦ د. مصر ٤ ج
سوريا ٥٠ ل.س. قطر ٦٠٠ ر. المغرب ١٥
الأردن ١ د. البحرين ٦٠٠ ف. تونس ١,٥ د.
الكويت ٥٠٠ ف. السعودية ١٠ ر. عمان ٦٠٠ ب. العراق

١ ـ خيارها الوحيد

تساءلت آيرين ما إذا كان الرجل يراقبها.. منذ دخوله غرفة الانتظار في الدرجة الأولى.. كانت وحيدة حين انفتح الباب، وكان من الطبيعي أن ترفع رأسها عن كتابها لتنظر إلى القادم الجديد..

لم تتوقع آيرين شخصاً مثله.. طويلاً، عريض الكتفين، ملامحه جميلة لكنها متجهمة لم ترَ آيرين مثلها من قبل سوى على شاشات السينما. لم يبدُ مشابهاً لرجال الأعمال المتوسطي العمر، كما أقسمت لها صديقتها إليان، بأنهم الوحيدون الذين يستخدمون غرفة جلوس الخطوط الجوية الخاصة ما بين الرحلات. قالت لها إليان بصبر:

ـ اسمعي، أمامك ساعتان من الانتظار ما بين الطائرتين.. فلم الجلوس في غرفة يملؤها الضجيج طوال الوقت؟ لدي صديق يعمل منظماً للرحلات ويستطيع إدخالك إلى غرفة الانتظار حيث الشخصيات المهمة.

وبالفعل فقد كانت إليان على حق، فغرفة الانتظار كانت كبيرة لائقة، مفروشة بشكل أنيق.. ولكن كل هذا لم يحل مشكلة الإحساس بأنها في غير مكانها، وبأنها غير مرتاحة..

أول فكرة راودت إليان حين رأت الرجل، بأنه حقاً ينتمي إلى هذا المكان، أما هي فلا..! ثم حدث شيء ما، شيء غير قادرة على فهمه..

التقت عيناها بعينيه الزرقاوين المائلتين إلى اللون الليلكي.. وكأن تياراً كهربائياً سرى في الغرفة.. وسمعت آيرين ضربات قلبها المتسابقة، ثم ابتسم الرجل. وأرسل بابتسامة خفيفة من فمه، لوناً وردياً تدفق إلى وجنتيها..

جذبت آيرين رأسها بعيداً، مجبرة نفسها على النظر إلى خارج النافذة علها ترى شيئاً. وأخيراً سمعت وقع قدميه. وهو يقطع الغرفة.. ثم تحرك الجلد الناعم تحته وهو يستقر في مقعده.

حلّ الصمت حولها مجدداً.. وتجرجرت الثواني محاولة أن تقرر ماذا تفعل.. كان سيدفعها نهورها للهرب من الباب نحو ردهة الانتظار العامة.. إنه لأمر سخيف! فما من سبب يدعوها للهروب.. فقط مخيلتها هي التي تدفعها لتتوهم هذا فليس هناك ما يدعوه للتفكير بها أو للنظر إليها إنه على الأرجح يقرأ صحيفة أو غافياً على مقعده..

ـ عفواً..

رفعت رأسها مصدومة! يقف الرجل نفسه أمامها، ماسكاً صحيفته في يده، ويبتسم:

ـ كنت أتساءل هل ساعتك مضبوطة؟ يبدو أن ساعتي قد توقفت عن الدوران..!

أشاحت آيرين بنظرها عنه نحو الساعة الكبيرة المعلقة على الجدار متعمدة.. وقالت: إنها السابعة وخمس دقائق.

لحقت عيناه بعينيها، واتسعت ابتسامته:

ـ كيف لي أن لا أنتبه إلى هذه؟

لم ترد عليه فوضع يده على الكرسي الملاصق لها: هل لي..؟

عضت على شفتها السفلى بأسنانها: إذا أحببت.

تكلمت عيونهما ثانية، فأشاحت بنظرها عنه وبسرعة، مخبئة رأسها بكتابها المستقر في حضنها تتمنى لو تقرأه.. وسمعت حفيف الورق.. ولمحته بطرف عينها مستغرقاً في القراءة.

نظرت إلى الكتاب مجدداً.. ماذا دهاها بحق السماء؟ إن الرجل الجالس إلى جانبها جميل الطلعة، أجل.. لكنها شاهدت الكثيرين من أمثاله.

لكن..! إنه مختلف.. لا يشبه غيره من الرجال الذين سبق أن عرفتهم في بلادها. إنه مجرب وقدير، وتستطيع أن تلاحظ هذا من نظرة واحدة. ثم، هناك مظهره، الجسد المتصلب والوجه الصارم والوسيم..

و..

ـ هل ستأخذين الرحلة دون توقف إلى نيس؟

رفعت رأسها لتسمع صدى كلماته الرنانة، وكان يبتسم بأدب خافيا سحر عينيه الزرقاوين، سحر جعلها تكتم أنفاسها.. ولامست آيرين شفتيها بلسانها الجاف كجفاف الصحراء: أجل.

هز رأسه:

ـ وأنا كذلك.. هل أنت في إجازة؟

ـ أجل.

أهذه الكلمة الوحيدة القادرة على تلفظها؟

ـ هل كنت في الريفييرا قبلاً؟ ستحبينها.. إنها مكتظة في هذه الأيام من السنة.. لكن، لا زال هناك بضع أماكن بعيدة لم يكتشفها السواح حتى الآن.. أين ستقيمين؟ ربما نستطيع أن..

ردت بسرعة: لا.

رفع حاجبه، وأحست لخوفها بحرارة الخجل تعلو خديها:

ـ أعني.. لست حقاً في إجازة.. لقد دُعيت للقيام ببعض الأعمال..

و..

أوه.. يا إلهي! إنه يسخر منها.. حسن جداً، إنها تجعل من نفسها حمقاء! اللعنة.. أم إنه هو من يجعلها كذلك؟

تحاملت على نفسها بقوة.. هذا يكفي.. استجمعت أعصابها بابتسامة باردة وأردفت:

ـ أرجو عفوك.. لكنني أريد أن أنهي قراءة كتابي.

أعادت نظرها إلى الكتاب مجدداً على أن تتابع القراءة ولكن عبثاً، فقد كانت مرهقة الأعصاب..

ضحك بنعومة:

ـ أيمكنك حقاً قراءة الكتاب كله قبل موعد إقلاع الطائرة؟

رفرفت عينيها، وأمعنت النظر بكتابها المفتوح على فصله الأول.. وتصاعدت الحرارة مجدداً إلى وجهها وفكرت ملياً: حسن جداً.. حسن جداً.. لقد اكتئبت.. لم يبق أمامها سوى نصف ساعة على انتهاء الرحلة

وهي ليست مستعدة لأن تجلس هنا وتوفر التسلية لشخص قد اعتاد على السفر الطويل.

أبعدت نظرها عن اللمعان الخبيث الظاهر في عينيه، ووضعت حقيبة الكتف في ذراعها، والكتاب في جيب الحقيبة، ثم وقفت عن كرسيها. . متابعة سيرها نحو غرفة الانتظار. .

ـ آنسة؟

قفزت خائفة ويده تلامس كتفها. . كيف تحرك بهذه السرعة وبهذا الصمت؟ . . إنه هاهنا بجوارها. ولا يزال يبتسم، لكنها الآن ابتسامة كسولة ومثيرة.

ـ لم أقصد إخافتك. . لكنني فكرت. .

ـ تفكيرك خاطىء. . والآن لو تخطو جانباً.

أصبحت ابتسامته ضحكة. قال بسهولة:

ـ ما من مشكلة. . ما عدا موقفك المحرج والصعب الذي ستواجهينه عند صعودك إلى الطائرة دون هذا.

نظرت إلى يده الممدودة: ما هذا. . ؟

ـ أظنه إذن الصعود إلى الطائرة.

ضحك مجدداً للنظرة على وجهها، وأكمل:

ـ هيا. . ألقي نظرة عليه وتأكدي.

ترددت ثم أخذت المغلف منه محدّقة النظر إليه. . إنه محق وهذا فعلاً إذن صعودها إلى الطائرة. . لكن كيف. . ؟

ابتسم: لقد أوقعته أرضاً حين وقفتِ. .

بلعت بريقها: أنا لم. .

تلاقت عيونهما مجدداً، وبلعت بريقها ثانية: شكراً لك

ـ شكراً لك؟ أهذا ما أستحقه رغم ما فعلته لك؟

نظرت إليه:

ـ ماذا. . ماذا تعني؟

ـ لن أشعر بمدى امتنانك لي إلا بعد قبول دعوتي لك. .

ـ لا. . لا أستطيع. . فطائرتي. .

ـ لن تبدأ رحلتنا قبل نصف ساعة. . ولدينا المزيد من الوقت.

هزت رأسها:

ـ شكراً لدعوتك، لكن. .

ـ قهوة أم شاي؟

ـ لا. . لا. . لا أريد شيئاً. . شكراً لك. . أنا فقط. .

موقف حرج سخيف، لقد جعلها تبدو كالبلهاء. . قالت دافعة الباب لتفتحه: وداعاً.

وخرجت إلى الممر.

أطلقت أنفاسها المحبوسة مع انغلاق الباب خلفها. أحست بساقيها تسترخيان. . وتهاوت قليلاً إلى الخلف تستند إلى الجدار. . يا له من عرض رائع قدّمته! لقد تصرفت كفتاة مراهقة. .

جمعت أشياءها متنهدة واتجهت إلى بهو الانتظار العام. . هي في غير مكانها الصحيح. . الغريب هو من ينتمي إلى ذلك المكان، أما هي فلا. . وماذا بعد. . ؟ ما الذي سيحدث لها عند وصولها إلى فرنسا؟

يا إلهي. . ستكون رحلتها كارثة!

عزيزتي إليان، كم أود خنقكِ لإقناعي بكل هذا. .

تنهدت آيرين بقلق. . كوني صادقة. . لم يكن هذا ذنب إليان أكثر مما هو ذنبك. . أوه. . لقد اخترعت الحجج لهذا، لكنه الواقع، فقد تأكد قدرها هذا منذ خمسة أيام يوم اتصلت بها ويندي هاتفياً. . وكان عرض ابنة عمتها لا يقاوم.

أوقظ رنين الهاتف آيرين في وسط الليل من نومها العميق، تبعثرت أوراق الامتحانات المتروكة على الطاولة قرب سريرها، وانزلقت إلى الأرض محاولة البحث عن الجهاز. . وجدته أخيراً، وقربت السماعة إلى أذنها. . الصوت بعيد يكاد أن يختفي بسبب بعض التشويش. . وقالت:

ـ ألو؟ . . آلو؟ من المتكلم؟

ـ آيرين. . ؟ هذه أنا ويندي. . هل تسمعينني؟

انتفضت بسرعة من فراشها صاحية وكأن ماءً بارداً قد هبط على رأسها. . أضاءت المصباح قربها وأمعنت النظر بساعتها. إنها الخامسة

صباحاً.

- ماذا حصل ويندي؟ هل انتاب عمتي أولينذا نوبة قلبية أخرى؟

بدا نفاذ الصبر في صوت ابنة عمتها:

- لأجل السماء آيرين، لا تكوني مأساوية هكذا.. أمي بخير.. أيجب أن يحصل مكروه لأتصل بك..؟

عادت آيرين تغوص فوق الوسادة، وأجابت:

- إنها الخامسة فجراً.. وأنا لم أسمع صوتك منذ أربعة أو ستة أشهر، لذا لا تستطيعين لومي على دهشتي هذه.

تحول صوت ويندي إلى النعومة:

- أردت فقط أن أقول مرحباً آيرين.. وقد نسيت فرق توقيت الزمن فأنا دائمة التفكير بك، ولو نسيت أن أتصل أحياناً.. ألست نسيبتي المفضلة؟

تنهدت آيرين بعمق: ويندي..

- ألست كذلك؟ أنت نسيبتي المفضلة؟

كان مستحيلاً أن لا تبتسم آيرين.

- أنا لست نسيبتك المفضلة فحسب، بل والوحيدة.

وضحكت الفتاتان وتلاشى الجمود.

- كيف أنت آيرين، وكيف حالك؟

- بخير.. وماذا عنك؟

- أوه.. أنا رائعة.. لقد تجوّلت في كل مكان في الأشهر الأخيرة. ألم تخبرك أمي..؟

- بلى، فقد تحدثت معها مطولاً منذ أسبوعين.. وأخبرتني عن سفرك إلى روما ولندن بمهمة لعرض الأزياء.

ابتسمت آيرين وهي تدفع خصلة شعرها الذهبية اللون عن وجهها، وأكملت: محظوظة!

- أنا محظوظة فعلاً.. إنما انتظري لتعرفي أين أنا الآن؟

- أوه.. لقد ذكرت شيئاً عن فارق الزمن والتوقيت.. هل أنت في أوروبا؟

ضحكت ويندي:

- قالت أمي إنك ما زلت تدرّسين اللغة الفرنسية في «نافت هاي». هل هذا صحيح؟

- وماذا يمكن أن أفعل غير هذا؟ لكن ما دخل هذا مع..؟

- وأين تعتقدين بأنني موجودة في غير ذلك المكان، يا معلمة الفرنسية؟

اتسعت عينا آيرين:

- أتعنين.. ويندي.. هل أنت حقاً في فرنسا؟

- هذا صحيح.. أنا هناك.. أنا في الكوت دازير.. في بلدة صغيرة خارج نيس.. هل أصبت بالحسد؟

- سأصاب به لو أخبرتني أنك هناك في إجازة.. على الأقل قولي لي بأنك تعملين بجهد.

ضحكت ويندي:

- ألم تخبرك أمي؟ لم أعد أعمل كعارضة أزياء، فقد وجدوا بأن طولي لا يزيد عن المئة وسبعين سنتمتراً وهذا لا يتناسب مع عملي.. أنا هنا برفقة شركة لإنتاج الأفلام..

جلست آيرين في الفراش وتناقلت السماعة إلى الأذن الأخرى:

- شركة أفلام؟ هل حصلت أخيراً على دور تمثيلي؟ ويندي! أوه.. كم أنا سعيدة وفخورة بك. أعلم كم عانيت.

- أنا لن أشترك في الفيلم فعلياً آيرين..

قطبت آيرين حاجبيها:

- ما نوع عملك إذن؟

- حسناً.. آيرين.. سمعت بهذا الفيلم الذي يتجه مارتي هازرد.. وبحثت سلباً عن طريقة أدخل بها الأجواء التمثيلية، كنت قد التقيت منذ سنوات بهازرد أثناء قيامي بعرض أزياء يقام لحفلة خيرية في لوس أنجلوس.. و..

- إنك لست في الفيلم، وكيف هذا..؟

انخفض صوت ويندي إلى الهمس المتآمر:

ـ أنا لست فيه . . لكنني قمت ببادرة جيدة ووضعت قدمي على الباب . . حصلت على وظيفة كسكرتيرة لهازرد .

فكرة عمل ويندي كسكرتيرة لمنتج أفلام، جعلت آيرين تضحك عالياً:

ـ هيا الآن ويندي . . ولا تحاولي خداعي . . فأنا أعرفك جلياً .

ترددت ويندي:

ـ حسناً . . في الواقع، لم يستخدمني هازرد لأعمال السكرتاريا، إنما كمساعدة منفذة له . . تعلمين كيف . أنظم له مواعيده، أحضّر له برنامج عمله اليومي . . ونستطيعين القول إنني صلة الوصل بينه وبين الطاقم الفرنسي العامل معه .

ذُهلت آيرين . . فالأمر يزداد غرابة أن تكون ابنة عمتها تعمل كسكرتيرة ومترجمة . . وسألت بغرابة: ماذا؟

ـ صلة الوصل . . أوه . . أدون الأعمال اليومية في موقع التصوير فقط . . أسجّل الملاحظات وأطبع الإشعارات وأرسلها . . يستخدم هازرد شاباً فرنسياً للأمور الأخرى، وللتعامل مع الرسميين والمحليين و . . .

كان صعباً على آيرين أن تقرر ما إذا كانت ستضحك أم ستبكي، وقالت بلطف:

ـ لكنك لا تجيدين الفرنسية . . !

ـ لقد درستها . . مثلك تماماً . . كنتِ أفضل مني، هذا مؤكد لكن . . !

هزت آيرين رأسها . . وفكرت . . أمر مذهل، ويندي لم تتغير قط خلال السنوات الماضية . . في أيام المراهقة تمكنت من شق طريقها بالقوة نفسها التي تتحلى بها الآن . . وهكذا كانت دائماً تُقنع آيرين بكتابة فروضها والقيام بأعمالها .

لكن هذا العمل الطائش الآن خطف الأنظار عن كل ما عداه . . نقوم ويندي بعمل صلة الوصل مع فريق عمل فرنسي اللغة، وفي موقع تصويري لفيلم سينمائي؟ هذا مستحيل . . هذا . .

ـ . . . كما كنت دائماً جيدة آيرين . . أليس كذلك؟

تنحنحت آيرين لتجلي حنجرتها:

ـ سألتك عما إذا كنت لا تزالين تجيدين الفرنسية كعادتك . . لكن يجب هذا، إذا كنت تدرسينها .

ـ أعتقد هذا . . لكن لماذا؟

زفرت نسيبتها أنفاسها:

ـ أندرين، نحن في موقع التصوير الآن . ومنذ أسبوع وأنا أفكر بك باستمرار . آه، كم ستحبين المجيء إلى هنا .

تنهدت آيرين:

ـ أنت محقة . . أشعر بالحسد الشديد . . ما اسم البلدة التي تقيمين فيها؟

ـ سانت آغاث . . إنها في أقاصي الجبال .

أغمضت آيرين عينيها، وقالت حالمة: لا شك بأنها جميلة . وأتمنى لو أستطيع . . .

قالت ويندي بسرعة:

ـ تستطيعين . . ولهذا أتصل بك . أريدك أن تأتي لتمضي إجازة الصيف سوياً .

جلست مستوية متصلبة: ماذا قلتِ . . ؟

ـ قلت، أريد أن تقضي إجازتك هنا . . في «سانت آغاث» . . ألن يكون هذا عظيماً؟

أذهل العرض آيرين . . ومضت لحظات صمت طويلة دون كلام، ثم قالت ويندي فجأة:

ـ آيرين . . هل بلالمك نوفيتي؟ تكاد المدرسة تنتهي، أليس كذلك؟

لامست آيرين شفتيها بلسانها:

ـ أجل . . تنتهي يوم الجمعة . . لكن

ارتفع صوت ويندي احتجاجاً:

ـ أرجوك فكري فقط بأنك موافقة . . بإمكانك رؤية الكوت دازير والريفييرا، حتى أنه بإمكانك الذهاب إلى باريس لبضعة أيام . ولن يكلفك هذا قرشاً واحداً .

ضحكت متابعة:

ـ حسناً، تقريباً، عليك دفع أجرة السفر إلى هنا، والرحلات الأخرى.. كل ما تبقى سيكون مجاناً..

ضحكت آيرين مرتجفة:

ـ ويندي.. اسمعي.. لا أستطيع أن..

ـ تتكفل الشركة بإقامتنا.. أملك منزلاً من غرفتين في «أوبرج» قديم وجميل، كافيتين لنا معاً.. سنعمل على التوفير من مصروف الطعام.. هيا الآن آيرين.. قولي إنك موافقة.. سنلهو كثيراً معاً.. كما في الأيام الماضية.

الأيام الماضية! بدت غرفة نوم آيرين الضيقة وكأنها تضيء لون الصباح الرمادي، وللحظات، أشرقت الجدران المغطاة بخشب الصنوبر بلون زهري شاحب.. وتحولت الغرفة إلى جدار شفاف يفصل بينها وبين العمة أولينداً وزوجها العم مالكولم، بعد إيوائها إثر وفاة والديها.

قالت لهما العمة آنذاك بعد أن شبكت يديهما:

ـ أنتما الآن شقيقتان رائعتان. ألن يكون هذا ممتعاً..؟

لكنهما كانتا بالكاد صديقتين.. ليس لأن آيرين لم تحاول ذلك، وهي الطفلة الخجولة، بعد هدم حياتها بخسارة والديها. كانت تحاول بيأس التقرب من ابنة عمتها الجميلة، لكنهما كانتا من عالمين مختلفين.. ففي الثانية عشرة كانت ويندي متعلقة بالشبان والثياب والماكياج، بينما كانت آيرين خجولة جداً أمام الصبيان، وأقل جمالاً من أن تعتني بالماكياج والثياب والأناقة. في الواقع، القاسم المشترك بينهما [عدا غرفة النوم المشتركة] كان صفوف دراستهما ومهامهما الدراسية والواجبات. في نهاية المطاف كانت آيرين تتحمل المسؤوليات كافة.

ـ آيرين..؟ آيرين.. بحق السماء هل أصبح الاتصال سيئاً فأنا بالكاد أسمعك!

وعادت آيرين من حلمها وأنزلت ساقيها أرضاً.

ـ شكراً لدعوتي ويندي.. لكنني لا أظن حقاً..

ـ هيا الآن.. أسمعيني موافقتك الفعلية.. ألست نسيبتي المفضلة؟

ردت آيرين آلياً، بردة فعل كما في طفولتهما:

ـ لست فقط نسيبتك المفضلة.. بل الوحيدة أيضاً..

ـ هذا صحيح.. فقد آن الأوان لنمضي سوية أجمل أيام حياتنا كما كنا نفعل سابقاً.

تنهدت آيرين بعمق وقالت بحزن:

ـ ويندي.. هل نواجهين مشكلة ما هناك؟

ـ لأجل السماء.. ما من شيء.. ألم أقل لك هذا؟ ولقد اتصلت فقط لأنك المفضلة...

ـ هيا الآن ويندي أخبريني ما الأمر؟

ساد صمت قصير، قطعه صوت هامس لتنهيدة ويندي عبر الأطلسي:

ـ أريد خدمة صغيرة، تقومين بها لأجلي لو جئت في زيارة.. آيرين، أقنعت رئيسي سيد هازرد بأنني ضليعة باللغة الفرنسية وأجيدها ببراعة.. وكما تدرين فإن هازرد يتعامل مع الكثير من الفرنسيين هنا.

ـ اعتقدت بأن عليك إرسال التبليغات فقط.

ـ وهذا ما حسبته في البداية، لكن أشياء أخرى ظهرت أمامي.. فالمترجم لا يتواجد دائماً.. أحياناً قد يكون في نيس بعمل.. أو..

ـ وهل قلت للسيد هازرد إنك طليقة اللسان باللغة الفرنسية؟

ساد صمت آخر.. قطعته ويندي مجدداً:

ـ لا.. ليس تماماً.. قلت له بأنني كنت جيدة في صفوف الفرنسية.

أطلقت آيرين ضحكة مكبوتة، ثم قالت بصبر:

ـ ويندي.. أنا فقط من كانت جيدة.. أتذكرين؟ كنت تنسخين فروضي، وكنت أحشو دماغك كالمجانين قبل كل امتحان.

قالت بلهفة:

ـ يمكنك فعل هذا مجدداً.. ليس لدماغي بل لمساعدتي في بعض الأعمال المكتبية والرد على بعض المخابرات الهاتفية.

لان صوتها:

ـ تعتقد أمي أن هذه فكرة رائعة.

ـ وهل تحدثت مع العمة ايليان بهذا الصدد؟ لكن..

ـ قالت إنك بحاجة ماسة إلى تغيير المناظر.. وبأن الحادثة قد

كدرتك كثيراً.. أكانت الحادثة مُروعة؟

همست آيرين بعد صمتٍ طويل:

- أجل.. كانت مريعة.

- وما اسمه؟ جاك؟

- جوفري.. جوفري هوارت.. تعرفينه ويندي.. كان يسبقنا بسنتين في المدرسة.

- أيتنمي إلى فريق كرة القدم أو أي شيء آخر؟

ابتسمت آيرين للفكرة: لا..

- إذن، لن أذكره..

أثارت الملاحظة غير المكترثة آيرين.. لكن ويندي تنهدت، وامتلأ صوتها بالاهتمام وهي تتابع:

- أنا آسفة جداً.. متى حصل هذا؟

- منذ ثمانية أشهر..

- يلائمك السفر إذن، وسيكون مناسباً لك.. وستنقذين حياتي.. حقاً.

ابتسمت آيرين مرة أخرى:

- تأخذين الأمور بطابع مأساوي.

انخفض صوت ويندي:

- هذا صحيح.. أحتاجك هنا حقاً.. اسمعي.. يجب الآن أن أنهي المخابرة.. سأرسل لك معلومات عن الوصول إلى «سانت آغاث» أوكي؟

- لكنني لم أقل بعد إنني قادمة.

سمعت آيرين صوت رجل قادم من البعيد مع صدى ضحكته فجذبت سماعة الهاتف إلى أذنها محاولة التنصت:

- ويندي، هل ما زلت معي؟

قالت ويندي بهمسة مقطوعة الأنفاس: أجل.. أنا هنا.

ثم ضحكت بنعومة وقالت:

- دقيقة بعد.. أجل.. فأنا أطلب منها الآن.

- مع من تتكلمين؟

- اسمعي آيرين.. يجب أن أنهي المكالمة فوراً.. احجزي تذكرة السفر.. أتملكين جواز سفر؟ ستحتاجين إلى فيزا.. أوه.. وإلى سيارة أجرة لتصلي إلى هنا من المطار.. و..

- ما هو رقم هاتفك هناك؟ كيف يتسنى لي الاتصال بك؟ ويندي؟..

انقطع الخط.. وعلقت آيرين السماعة ببطء، ثم عادت إلى الوراء، تستند إلى الوسائد، تحاول تصور ويندي كمساعدة منقذة لموقع التصوير.

تناءبت، ووقفت تتجه إلى النافذة لتفتح الستائر المنسدلة. إنه حزيران، شهر الدفء، ترسل فيه الشمس بأشعتها الذهبية لتضفي رونقاً خلاباً، وتعبق رائحة الجو بعطر حقول الذرة الممتدة بعيداً نحو أفق «ميسوري».

مددت ذراعيها بكسل إلى الأعلى فوق رأسها.. إنها متعبة.. لكنها لن تعود إلى النوم مجدداً. فالأفضل لها أن تستحم وتغير ملابسها، تتناول فطورها، وتفكر جدياً بدعوة ويندي لها.

صيف كامل في فرنسا.. لم تسافر في الواقع إلى أي مكان ما عدا زيارتها لعمتها وزوجها في مقرهما الجديد في أريزونا. ثم إن ويندي على حق.. فهي تحتاج حقاً إلى التغيير. كان الشتاء طويلاً وصعباً.. ولا تزال تتصور جوفري ممدداً على الطريق، يصبغ دمه الأرض المزفتة، يعاني من سكرات الموت المتسللة إليه.

هزت آيرين رأسها، واتجهت نحو الحمام.. لا.. لن تعاود ثانية التفكير بذلك اليوم المشؤوم.. وأنجزت حمامها بسرعة متناسية حزنها على جوفري.. فكثرة التفكير به لن تعيده إليها.. لن تفيدها أيضاً رحلة أوروبا، بل ستكبدها المصاريف الباهظة الثمن.. قد تكون الإقامة والطعام مجاناً.. لكن أجرة السفر باهظة.

كلما فكرت بالأمر أكثر تجده سلبياً. قد تكون ويندي مرتاحة في موقع تصوير الفيلم.. لكن هل سينطبق هذا عليها؟ ثم هناك ويندي نفسها.. أيمكن أن يتفقا؟ بادرتها صديقتها ايليان حين أخبرتها بالأمر قائلة:

- أمجنونة أنت؟ إجازة مجانية في أوروبا وترفضينها؟

كان من الصعب جداً أن تقنع آيرين صديقتها ايليان بأن الرحلة لن تكون مجاناً، رغم كل التسهيلات التي قدمت لها.. فما من سبب كاف ليغير رأي ايليان أو لإخماد حماسها.

- ربما تغيرت.. أعني ألن يكون الأمر عظيماً إذا كانت ترغب فعلاً في أن تجتمعا مجدداً؟

احمرّت آيرين للحظات، لكنها هزت رأسها:

- أنا أكبر سناً من أن أؤمن بالمعجزات اليان.

- إذن دعيها تظن أنها ستحصل على تعويض منك، كما كان الأمر وأنتما صغيرتين.. وستحصلين أنت على تعويضك كذلك.. صيف في الخارج.. وفي موقع تصوير لفيلم سينمائي!

لكن خطوة سريعة أصابت الهدف بعد ظهر ذلك اليوم.. فقد كان برن الهاتف عند دخول آيرين غرفتها. وكانت العمة أوليندا تتصل من «أريزونا».. ولم تترك لها عمتها مجالاً لتتفوه بأدنى كلمة قبل أن تندفع لتعرب عن سعادتها لعودة الابنتين إلى بعضهما مجدداً.. ثم أخذ العم مالكولم السماعة وأعرب بدوره عن فرحه لسماعه بهذه العودة. وأنه لم يشاهد زوجته أوليندا على هذا المقدار من السعادة منذ نوبتها القلبية السابقة.

وقالت اليان ببراءة:

- يجب أن تذهبي الآن. أعني كيف يمكنك أن تخذلي عمتك؟

- لن أستطيع خذلها كما أعتقد، فأنا غير قادرة على صدّ طلبها.

فكرت الآن أنه كان بإمكانها أن تفعل.. لكنها كانت ترغب في قبول العرض طوال الوقت.. ولو أنها لم ترغب في الاعتراف بهذا.. فرواتب المعلمين ضئيلة جداً في ميسوري، كما هي في كل مكان آخر. وقد تكون هذه فرصتها الوحيدة لقضاء ثمانية أسابيع في فرنسا.

«سيداتي سادتي، يوم سعيد. نحن الآن مستعدون لاستقبالكم على متن رحلة الخطوط الجوية الفرنسية رقم ١٠١ المتجهة رأساً إلى نيس.. نلتمس من ركاب الدرجة الأولى أن...»

تسارعت دقات قلبها تحسباً. ووقفت تمسك حقيبة الكتف بيد

والحقيبة الصغيرة الأخرى باليد الثانية.

وقفت فجأة واتجهت بنظراتها المشدودة بذهول إلى ركاب الدرجة الأولى، وهم يتحركون نحو البوابة. إنهم قلائل.. لكن بدا الرجل الذي شاركها الجلوس في حجرة الانتظار واضحاً بينهم، شامخ الرأس، لا تشوبه شائبة، يملك كتفين مستقيمتين، قادر على امتلاك العالم.. عاودها الإحساس المرهف، وجذبها إليه كما حصل في بداية الأمر.. رسالة ما تخطت عقلها لتصل إلى أعماق قلبها.

زفرت أنفاسها، وكأن صاعقة أصابتها، فقد ابتعد عن الجمع المتلفت حوله، رافعاً رأسه كأنه يصغي إلى شيء ما ثم استدار ببطء تبحث عيناه الزرقاوان عنها، وأحست كأن تياراً كهربائياً قد صعقها من رأسها حتى قدميها..

أدركت بدون تردد بأنه يبحث عنها.. ينتظرها..

ترنّحت وتراجعت خطوة إلى الوراء.. وامتزجت بسرعة بين الجموع.. قلبها يخفق بشدة.. و..

«مدام، مسيو...»

أعادت الكرة ونظرت نحوه ثانية.. ولكنه للأسف كان قد اختفى.

* * *

كانت الطائرة مزدحمة تماماً كما توقعت آيرين. كان مقعد آيرين في المؤخرة.. المقعد الأوسط بين ثلاثة مقاعد، والمقعدان الآخران ممتلئان.. فقالت لامرأة ممتلئة كانت تجلس في المقعد الأول: عفواً..

رفعت المرأة رأسها، وجهها يتصبّب عرقاً، ثم همست حين كانت آيرين تمر أمامها إلى مقعدها الأوسط:

- هل سنقلع قريباً؟

ابتسمت آيرين بأدب.

- أرجو هذا.

همهم الرجل الجالس في المقعد الملاصق للنافذة بشيء، ثم أكمل:

ـ من الأفضل جداً أن نقلع بسرعة . . لديّ موعد هام في نيس .

لكن الإقلاع تأخر ساعة . . مشاكل تقنية كما أعلن القبطان عبر مكبرات الصوت المتواجدة فوق الرؤوس . .

وما إن أقلعت الطائرة حتى تنهدت آيرين ارتياحاً . . لأن الألم في رأسها كان خفيفاً ويهدد بالتفاقم وكانت متوترة كرقاص مشدود . . ولم تستطع أن تتوقف عن التفكير بما حدث عند بوابة الخروج .

لا بد من وجود طريقة لتتفهم فيها ما حدث . . فقد توقع الرجل الذي قابلته في ثلاجرة الانتظار أن يراها عند الباب . . وحين لم تظهر ، أخذ يفتش عنها ، وهذه هي نهاية القصة .

لكن الأمر ليس بهذه البساطة ، فلا زالت تحس بتشتت نظراته في القاعة . . ثم هناك ردة فعلها . . والنبضات المتسارعة لديها . . و . .

ـ أرجو عذرك .

أجفلها الصوت الرجولي المنخفض الوتيرة . . وقفزت نبضاتها متسارعة وهي تنظر إلى الأعلى . . لكنه كان الرجل الجالس قرب النافذة ، يعتذر منها وهو في طريقه خارجاً إلى الممر بين المقاعد . تنهدت آيرين وأسندت رأسها إلى الخلف . . من كانت تتوقع؟ فلن يأتي الغريب ليفتش عنها ، إنه مختبىء وراء الستارة التي تفصل الدرجة الأولى عما تبقى من الطائرة . على أية حال لماذا يرغب في أن يجدها؟ لقد نسي كل شيء الآن على الأرجح .

وهذا بالضبط ما يجب أن تفعله . . قالت لنفسها بحزم وهي تخرج من عمق حقيبتها كتاب الدليل الذي سبق أن أعطته لها البان . ستكون في فرنسا قريباً ، وسيتحقق حلمها برؤية كافة الأشياء التي قرأت عنها .

تثاءبت المرأة إلى جانبها بصوت مرتفع وقطعت انسجام آيرين بالقراءة ، وقالت ضاحكة :

ـ يا إلهي . . هل نمت كثيراً؟ لم أكن أظن أنني . .

توقفت أنفاسها ثم قالت :

ـ لن أزعجك . . لا بد أنك تفضلين القراءة .

تنهدت آيرين :

ـ لم تزعجيني أبداً .

وأقفلت كتاب الدليل . . فأكملت المرأة :

ـ واثقة أنت؟ حسناً ، لطيف ما أسمعه . . اسمي لوسي نورمن . . هل سبق أن سافرت إلى الخارج قبلاً؟ أنا سافرت . . مرة واحدة ، بل مرتين في الواقع .

بعد ساعات من هذا تأوهت آيرين ارتياحاً حين لامست الطائرة أرض مطار نيس ، وبطريقة ما ، تمكنت من الابتسام بوجه لوسي ، التي تكلمت ، دون توقف تقريباً ، عبر الأطلسي كله ، قالت وهي تخرج جسدها الضخم من مقعدها : ألن تنزلي؟

نظرت آيرين إلى الركاب الذين بدأوا يتجمعون في المكان الضيق وهزت برأسها :

ـ سأنتظر . . فعلى ما يبدو لن يتمكن أحد من الذهاب لأي مكان الآن .

ضحكت لوسي :

ـ تتجنبين الزحام . . لا شك بأنك ذكية جداً . . لكنني لا أقوى على الانتظار حتى أضع قدمي على الأرض الصلبة مرة أخرى . .

ابتسمت آيرين ملوّحة بيدها للمرأة المبتعدة عنها في الصف الطويل . . ثم استقرت في مقعدها . . وداس الرجل القابع قربها على أطراف أصابعها وهو يشق طريقه من أمامها .

فكرت متنهدة ، يبدو الجميع مستعجلاً لسبب ما ، ما عداها . . ولا أحد ينتظرها ، وليس من طائرة أخرى لتلحق بها . . ! قالت لها ويندي إنها لن تستطيع لقائها في المطار ، فهذا سيكون يوم عمل . . ورجتها أن لا تمانع . . وردت آيرين بأن لا بأس في هذا . . لكن في الحقيقة أن الوحدة مروّعة والأسوأ هو أن ينتقل المرء من طائرة إلى بلاد غريبة ، دون وجود من يستقبله .

إلا إذا كان الرجل ينتظرها . . إلا إذا كان ، وحتى الآن ، ينظر بلهفة يفتش عنها ، يتفرس في كل وجه قادم بعينيه الزرقاوين القاتمتين .

وقفت آيرين بسرعة والتقطت حقيبتها الصغيرة وحقيبة الكنف . . ما

من داع للجلوس والانتظار . . بل من الأفضل لها أن تنطلق .

كان ينتظرها صف طويل ، بطيء الحركة أمام دائرة الجوازات ، وابتسمت آيرين بنعومة للمفتش ، لكنه كان يبدو ضجراً ، عديم الاهتمام ، لم يكترث لها حين أخذ جواز سفرها :

ـ كم ستبقين في فرنسا؟ هل جئت للعمل أم للمتعة؟

ردت آيرين عليه بالفرنسية ، فتهلل وجهه بالابتسام : آه مدموزيل . .

وانطلق يتحدث باللغة الموسيقية الناعمة التي درستها وأحبتها سنوات عديدة .

الفرنسية . . إنه يتكلم الفرنسية ، والفرنسية الحقيقية . . وانفرجت أساريرها إثارة . . إنها حقاً في فرنسا .

جرّت آيرين حقيبتها إلى مركز السيارات المؤجرة . قريباً ستكون في «سانت آغاث» مع ويندي . . وسيكون من الرائع رؤيتها مجدداً ، مع أنها لا تؤمن بالمعجزات . وستخبرها ويندي بكل شيء ، مع أنه قليل ، أو ربما ستخبرها عن جوفري ، وكم كان لطيفاً ، وطيباً . .

لا . . لن ننساه أبداً . . وتقدمت آيرين في الصف الطويل . . جوفري كان ألطف رجل عرفته في حياتها . ولقد أحبها كثيراً ، وأحبته هي بدورها . . مع أن حبها لم يكن كما أراد ، فقد كانت تحس بحاجته إليها ، وهذا يكفي . . والسماء وحدها تعرف أنها حاولت أن تحس بما يحس به . لكن هذا ما لم يحدث .

يا الله! ماذا تتذكر الآن؟ لا يمكنها مقارنة مشاعرها نحو جوفري بأي شيء آخر . .

ـ مدموزيل؟

رفعت آيرين رأسها ، فابتسمت لها الموظفة عند منصة تأجير السيارات بأدب :

ـ كيف يمكن أن أساعدك؟

فتشت في حقيبتها عن بطاقة الموافقة على تأجيرها سيارة وهي تقول :

ـ لديكم سيارة محجوزة لي ، صغيرة . اسمي آيرين شرايدن ولقد قمت بالاتفاق من . .

صمتت تنظر بذهول إلى الموظفة التي كانت تنظر إلى دفتر الحجوزات وهي تهز رأسها .

ـ أخشى أن لا يكون لدي .

ـ ليس لديك ماذا؟

ـ سيارة مدموزيل . . ليس لدينا سيارة لك .

ـ لكن بالطبع لديكم .

وقدمت لها اتفاق التأجير :

ـ ألا ترين ما تقول هذه؟ لدي سيارة محجوزة باسمي لهذا اليوم . .

ـ وي . . هذا صحيح تماماً ، لكنك وصلت متأخرة أكثر من ساعة ونصف . . ولقد حصلت على سيارة بسعر منخفض حتى قبل عشرين دقيقة من الآن .

تنهدت آيرين :

ـ أتعنين بأنني تأخرت كثيراً؟ حسن جداً ، سأدفع السعر العادي . . مع أنني لا أعتقد أن هذا عدل . . وتفهمين .

ـ ليس هناك سيارات آنسة شرايدن . . ولا بأي سعر .

هزت آيرين رأسها :

ـ غير ممكن . . يجب أن أحصل على سيارة لأذهب إلى «سانت آغاث» ولا أعرف وسيلة أخرى للوصول إلى هناك .

ـ أنا آسفة جداً مدموزيل ، ربما تأخذين تاكسياً . . هناك موقف للتاكسيات في الخارج ، وفي الغد . .

أخذت آيرين حقيبتها بعد جدال طويل واتجهت نحو بوابة الخروج . . في الغد! ما نفع السيارة لها في الغد؟ يجب أن تصل سانت آغاث اليوم . . حسناً . . إنها مضطرة أن تستأجر تاكسي . . لكن من يعرف كم سيكلفها هذا؟ لقد أرسلت لها ويندي خريطة ، وحسب علمها «سانت آغاث» تبعد أميالاً عن هنا . . وستكلف الرحلة ثروة على الأرجح .

تمهلت خطواتها ثم توقفت . . كان يجب أن تسأل الموظفة عن التعرفة . . على أي حال كم من الفرنكات يساوي الدولار؟ خمسة؟ ستة؟ وكم فرنكاً معها في محفظتها؟ ليس الكثير . .

ـ لأجل السماء.. هل ستقفين هكذا طويلاً؟

كان صوت الرجل، مليئاً بنفاذ الصبر.. وجف فم آيرين بعد أن أطبقت يده على ذراعها.. وفكرت: لا.. لا.. لا يمكن لهذا أن يحدث.

عرفت بأنه رجلها المنشود حتى قبل أن تستدير إليه.. وسألت: ماذا نفعل هنا؟

سؤال غبي.. لكنها لم تستطع التفكير بغيره.. على أي حال ماذا يفعل هنا؟ كان يجب أن يغادر المطار منذ مدة طويلة.

ضحك:

ـ أنقذك. هذا ما أفعله هنا.. لا بد أن هذا سيصبح عادة.

التقت عيناه بعينيها.. بدون أي مضاعفات أو شحنات كهربائية هذه المرة.. وقالت ببرود:

ـ إنها طريقة رائعة لوصف الأمر.. لكنني سعيدة بالقول لك بأنني لا أحتاج إلى مساعدتك.

ـ حقاً..؟ وكيف ستصلين إلى سانت آغاث إذن؟

أفلتت ذراعها من قبضته: كيف عرفت..؟

ـ لقد سمعت حديثك مع الموظفة.

ارتفع ذقنها:

ـ وهل من عادتك التجسس على النساء؟

ضحك:

ـ يا له من غرور آنسة شرايدن.. وهل لديك أسرار تخفينها؟

أحست آيرين بخديها يحمرّان.. وقالت لنفسها: مهلك.. لا تدعيه يثيرك.

قالت بهدوء:

ـ لا.. أجد الأمر غريباً فقط أن نصطدم ببعضنا مرة أخرى.. خاصة بعدما رأيتك تفتش عني في مطار كينيدي. لقد كنت..

صمتت بارتباك.. فقد اسودت عيناه، وارتفعت ابتسامة صغيرة عند زوايا فمه.. وقال بنعومة:

ـ صحيح؟ وكيف عرفت؟

انفضح أمرها.. ماذا ستقول له الآن؟ إنها تزيد الأمور سوءاً.. وهذا بدوره أمر سخيف، فما من داع لأن يرتبط لسانها.. لكن لو أنه فقط لا ينظر إليها هكذا!

ـ من الجميل جداً أن أحظى بسحرك مرتين، وفي يوم واحد.. لكن يجب أن تسامحني.. فأنا في عجلة من أمري، لذا لو سمحت أن تبتعد عن طريقي.

ابتسم:

ـ على الأقل أنت تتصرفين الآن أفضل مما كنت عليه منذ ساعات.

ـ ماذا من المفترض أن يعني كلامك هذا؟

ـ يعني أنك، كما يبدو، قررت بأنني لست ذلك الذئب الشرير المتخفي.. لكن المشكلة بأن الوقت قد تأخر لأقدّر لك هذا، فأنا متعب جداً.. لقد أمضيت أربع وعشرين ساعة وأنا في الجو..

ـ أرجوك ضع حقيبتي من يدك؟

ـ قلت لك بأنني مرهق، أرجوك عدم هدر الوقت سيدتي.

ارتفع حاجبا آيرين:

ـ هذه ليست مشكلتي.. لمجرد أنك..

ـ مشكلتك هي الوصول إلى سانت آغاث، وهو بالضبط المكان الذي أقصده.

رده أوقفها مجمّدة، ونظرت إليه:

ـ سانت آغاث؟ لا أصدقك.

تمتم بشيء حاد من بين أسنانه، ثم وضع حقيبتها على الأرض، ووضع يديه على خصره:

ـ اسمعي.. أحب لعبة القط والفأر وفي أي وقت آخر كنت سأسعد في الاستمرار بلعبها.. لكن ليس الآن.. لقد قلت لك، أنا متعب، وكل ما أبغيه هو الوصول إلى غرفتي لأستحم.

نظرت إليه آيرين بحدة:

ـ القطة والفأر؟ ليس لدي فكرة عما..

ـ هيا الآن، لا تبدأي هذا مجدداً.. أقوم بحركة تصديها بكتف بارد.

إنها لعبة صغيرة، ومثيرة. . لم أكن أظنك تعرفينها في البداية. . لكنك تعرفينها، بل وجيدة جداً في لعبها وممارستها.

اقترب منها. . وقال بهمس أجش:

ـ بالطبع، يمكننا إصابة عصفورين بحجر واحد. . فأنت بلا شك متعبة مثلي. . لماذا لا نذهب إلى مكان هادىء ونأخذ دوشاً معاً؟

احترقت وجنتاها احمراراً، ومدت يدها إلى حقيبتها تنتزعها عن الأرض بالرغم من ثقلها:

ـ لا. . ولو كنت الرجل الوحيد على وجه الأرض.

أضاء الضحك عينيه:

ـ هذا خيارك حلوتي. . وخيار مؤسف جداً. . كان بالإمكان أن تكوني رفيقة رائعة.

ـ سيكون سائق التاكسي الذي سيأخذني إلى سانت آغاث الرفيق الوحيد الذي أريده.

ضحك الرجل مجدداً:

ـ ما من مشكلة. . تمتعي برحلتك. . لكن اصنعي لنفسك معروفاً واطلبي من السائق سلوك طريق «مونت آبات» فهذا سيوفر عليك بضع كيلومترات. . وقولي له بأنك تعرفين القانون، وأنك لست مضطرة لدفع ثمن الوقود أو لمشاركة أحد ما في الرحلة. . وبالطبع أنت مضطرة لدفع أجرته على أي حال.

ابتلعت ريقها:

ـ على أي حال. . ؟ لكن. .

ـ إنها رحلة طويلة آنسة شريدان. . أتظنين أن هؤلاء الرجال يعملون لأجل لا شيء؟

ترددت:

ـ أنا. . لا أعتقد. . هل تعرف ما هي التعرفة؟

ـ ليس بالضبط. . لا. لكن حوالي الثمانمئة فرنك.

ـ ثمانمائة. . لكن هذا أكثر من مئة وعشرين دولاراً. .

ـ إذا رفض الذهاب عبر «مونت آبات»، فسيضيف خمسين أو ستين

فرنكاً. . ثم هناك الإكرامية بالطبع.

ـ بالطبع!

وضعت حقيبتها من يدها ببطء. . ثمانمائة فرنك. . هذا يوازي أجرة سيارة لأسبوعين. إنه لمبلغ ضخم، وسيحدث عجزاً في ميزانيتها الضيقة. .

ـ هل أنت. . حقاً. . ذاهب إلى سانت آغاث؟

ـ هذا ما قلته.

ـ لكن. . لكن. . أنا لا أعرفك. . أعني. .

ـ أيمكن للتعارف الرسمي أن يجعلك تحسين أفضل حالاً آنسة شريدن؟

قالت ببرودة:

ـ أعرف أن هذا يبدو مضحكاً جداً لك. . لكنني لست معتادة أن أسافر مع غرباء.

ـ لكننا لسنا بغريبين. . فقد تبادلنا حديثين رائعين جداً. . وتشاركنا الرحلة في نفس الطائرة. .

رفع يديه استسلاماً حين شاهد النظرة على وجه آيرين، وقال بوقار:

ـ أنت محقة تماماً. . شخصان على وشك الانطلاق برحلة معاً يجب على الأقل أن يعرفا اسميهما. . على أية حال أنا أعرف اسمك، وأعتقد أنه من حقك أن تعرفي اسمي أيضاً.

انحنى بسرعة:

ـ غاي ريتشاردز. . في خدمتك، آنستي.

شيء ما في طريقة تقديمه لاسمه جعلها تقول:

ـ هل من المفترض. . أن أعرف اسمك. . أو شيء ما؟

أجاب بابتسامة سريعة: أو شيء ما.

هل هو ممثل؟ ألهذا هو ذاهب إلى سانت آغاث؟ فهو وسيم بما يكفي. . تنفست بحدة:

ـ أنا آسفة. . لكنني أخشى. .

ـ أنا متسابق. .

٢ ـ الفلاحة الصغيرة

كانت سيارة غاي ريتشاردز سوداء، لامعة من النوع المنخفض السريع الانطلاق، تبدو وكأنها تتحرك حتى وهي واقفة . . ومن حقائب آيرين في الصندوق، ثم فتح لها الباب، ورفع يده بتحية عفوية:

ـ سيارتك التاكسي . . آنسة شرايدن.

نقلت نظرها منه إلى السيارة وبالعكس . . كان يبدو داخلها صغيراً جداً لاثنين، والمقاعد الجلدية قريبة جداً من أرضها، وهذا يعني أن ساقيها تحت فستانها الصيفي ستكونان ممتدتين تحت لوحة القيادة بشكل مستقيم.

استدارت تنظر إلى موقف التاكسيات، نحو الصف الطويل من المسافرين المنتظرين هناك . ثمانمائة فرنك . هذا مال كثير، ومن يدري كم سيمر من الوقت ليصل دورها؟

ـ أتعيدين النظر أيتها الفتاة الصغيرة؟

كان يترافص الضحك في صوته، وواجهت نظرته المتحذية . .

يا الله . . الرجل لا يحتمل! توقع منها في البداية أن تكون سهلة المنال، ولكنه قرر أخيراً أنها مجرد فتاة صغيرة ساذجة . . وفكرت . . يجب أن تتصرف معه هكذا.

رفعت رأسها لتتلقى ابتسامته بابتسامة متحفظة، وقالت:

ـ أبداً، كنت أتساءل فقط كيف يستطيع الإنسان أن يقود هذه . فهي غير مريحة.

ضحك وهو يستدير إلى مقعد القيادة، وانزلق وراء المقود:

ـ ليس للراحة علاقة بالأمر.

وكان محقاً بالطبع . . فليس للراحة علاقة بأي شيء، فقد صُنعت السيارة للسرعة فقط . . لكن السرعة كانت مستحيلة على الطرقات المكتظة بالسيارات حول المطار . . وأحست أنه بالكاد يكبح نفاذ صبره . . ثم أخذ يتململ في جلسته ومال إلى الأمام يضغط زراً . . فسمعت هديراً خفيفاً، وتراجع جزء من السقف إلى الخلف . . وامتلأت السيارة فوراً بالرائحة الذكية، فتنفست آيرين لتتنشقها، وسألت بصوت منخفض:

ـ ما هذه الرائحة الجميلة؟

ـ إنها الزهور بشتى أنواعها . . تشبه هذه المنطقة من فرنسا حديقة ضخمة . . لماذا لا تستندين إلى الخلف وتتمتعين بها . . ؟

ـ أنا أفعل هذا.

ـ لا . . أنت منشغلة جداً، في محاولة لإبقاء تنورتك فوق ركبتيك . . وأؤكد لك آنسة شرايدن أنني رأيت من النساء ما هو أكثر من ساقين . . ومن الأفضل لك أن تسترخي.

ولمعت أسنانه بضحكة صامتة سريعة.

نظرت إليه ثم إلى الطريق بسرعة . . لو أنها فقط تستطيع التفكير برد ذكي . . لكنها حاولت هذا من قبل، وارتدت النتيجة سلبية عليها . وحري بها أن تبقى صامتة . .

لا يزال السير مزدحماً . تجاوزا أخيراً صف السيارات . . وهبطت قدمه بقوة فوق دواسة السرعة، فقفزت السيارة بلهفة إلى الأمام، فوق طريق ضيقة متلوية . بحذر، نظرت إلى غاي ريتشاردز . . كان كل اهتمامه ينصب على الطريق، واختفى التوتر المرسوم على وجهه.

كان يستند إلى الخلف في مقعده . . بدا مسترخياً، لكنها كانت تدرك سيطرته التامة على السيارة السريعة، التي كانت بدورها تستجيب إلى لمسة منه، وتهدر تحت يده وكأنها القطة الراضية.

أحست فجأة بغضب غير منطقي، وقالت بحدة:

ـ أيجب أن تقود بسرعة؟

نظر إلى عداد السرعة، كما فعلت هي:

ـ لا يمكنك هذا، فرسان سباق الخيل قصيرو القامة أليس كذلك؟

مد يده وخلع نظارته، ورأت الضحك في عينيه.

ـ السيارات.. سباق السيارات.. أنا سائق سباق آنسة شرايدن.

سباق السيارات.. بالطبع.. من السهولة تصوره خلف مقود سيارة قوية.. والريح تلفح وجهه.. والمحرك يهدر..

ـ أنا آسفة.. لكنني لست..

اختفت نظرة التسلية عن وجهه، وكأنما أصبحت تنظر إلى قسمات وجهه الحقيقية من خلف قناع، لكن قبل أن تتمكن من معرفة ما يحصل، عادت مجدداً تلك النظرة المتعجرفة.

التقط حقيبتها: لا.. أنت لست..

واتجه نحو الأبواب، ثم التفت إليها:

ـ حسناً؟ أقادمة أنت أم لا؟

عضت على شفتها السفلية بين أسنانها:

ـ أنا.. أنا.. لست أدري.. ربما استطعت الحصول على سيارة من مكتب تأجير آخر.. ربما يجب أن أتصل هاتفياً..

تنهد غاي ريتشاردز، ورمى حقيبتها على الأرض مجدداً.

ـ حسن جداً.. لننتهي من الأمر كله.

وتقدم نحوها، فنظرت إليه: لا أفهمك.

ابتسم ماسكاً كتفيها بيديه:

ـ بلى.. تفهمين.. وكنت تتساءلين عنه منذ أن دخلت حجرة الانتظار في نيويورك.. ربما لو أخرجنا عنصر الإثارة من طريقنا، يمكننا الوصول إلى سانت آغاث قبل الأسبوع القادم.

عرفت مسبقاً ماذا سيفعل وتحققت من نواياه.. لكن الوقت تأخر جداً.. ارتفعت يداها لتضغطا على صدره وهو يلف ذراعيه حولها.. وقالت برعب:

ـ لا.. لا يمكنك فعل هذا.

فكرت فيما بعد لو أنها لم تحتج.. لو أنها لم تقل شيئاً.. أو فعلت شيئاً.. لانتهى الأمر هنا.. كان يقصد بعناقه لها المزاح فقط.. وكانت

تعرف هذا ملياً ورغم ذلك أبدت مقاومتها.. تأوهت قليلاً وهو يشدها إليه.. وأحست بنبضات قلبه المتسابقة تحت يديها.. والرد المتسارع من قلبها.. وفجأة توقف الزمن والواقع عن الوجود.

لا تدري كم من الوقت مر قبل أن يمسك بكتفيها مجدداً، ويبعدها عنه.. ووقفا ينظران إلى بعضهما مأسورين ضمن صمت شديد حتى بدا ملموساً.. ثم قبل أن تتكلم أخرج غاي نفسه، واستدار ليقول:

ـ حسن جداً.. أبعدنا هذا عن طريقنا.. هل تستطيعين حمل حقيبة الكتب وحدك أم أحملها لك؟

هزت رأسها: أنا.. أنا..

تلاشى صوتها، فاستدار إليها قائلاً:

ـ هذه آخر فرصة يا فتاتي الصغيرة.. ربما من الأفضل لك أن تنسي أمر سانت آغاث وتعودي في أول طائرة إلى أميركا.

فكرت بوضوح مرعب، أن هذا ربما أفضل شيء تفعله.. لكن بدلاً من هذا سألت:

ـ أين هي سيارتك سيد ريتشاردز؟

كانت مصممة على الرد.. ولحقت به إلى الخارج تحت الشمس المتوسطية الحارة دون أية كلمة أخرى.

* * *

ـ نحن لا نسرع أبداً آنسة شرايدن، بل بالكاد يصل معدل السرعة إلى التسعين ميلاً في الساعة.

تسعون! كيف وصلا إلى هذه السرعة دون أن تلاحظ؟ زاد توترها..

ـ سأكون شاكرة لك لو تخفف من سرعتك سيد ريتشاردز.

ضحك غاي:

ـ ما بالك فتاتي الصغيرة؟ هل أنت خائفة؟

ردت بصوت بارد أذهلها، لأنه كان مصيباً في تخمينه:

ـ لا.. أنت لم تخيفني.. بل أذهلني.. هل يخاطر رجل متزن بحياته ليلعب ألعاباً حمقاء؟

تحركت عضلة بشدة في فكه، وقال بنعومة:

ـ تستأهل الألعاب ذات المخاطرة العالية، لأن يلعبها الإنسان.. لكنك محقة آنسة شرايدن.. كل ما وافقت عليه هو توصيلك إلى «سانت آغاث» وليس سباقاً للجائزة الكبرى..

خفف سرعته وهو يتكلم إلى الخمسة وسبعين ميلاً في الساعة.. وأكملا الطريق بصمتٍ لفترة قبل أن ينظر إليها:

ـ أعتقد أنك لم تزوري الكوت دازير قبلاً؟

أيحاول جرّها إلى حديث لطيف..؟ إذا كان هذا دافعه، فسينتهي به الأمر إلى الحديث مع نفسه!

ـ لا.

ـ هل أنت في إجازة إذن؟

ـ أجل.

تنهد:

ـ وستذهبين إلى سانت آغاث كمحطة أولى؟

ـ أجل.

أخذت الطريق ترتفع أمامهما، وتلتف كشريط رمادي وهما يدخلان الجبل:

ـ أتملكين كلباً..؟

استدارت بالرغم منها لتنظر إليه بدهشة: ماذا؟

ـ كلب.. أتديك واحد؟

قطبت: لا.

قال بنعومة:

ـ أمر مؤسف.. كنت سأسأل ما إذا كنت لا زلت تضربينه.

تسممت عيناها بجانب وجهه المثير:

ـ لو كان لدي كلب، فلن أضربه أبداً.. ثم هذا سؤال غبي.. إذ لا يمكنك إعطاء رد بلا أو نعم لسؤال كهذا.. عليك أن..

تلاشى صوتها بعد أن بدأ يضحك.. ونظرت إليه لحظات، ثم ظهرت الابتسامة على أطراف فمها:

ـ نلت إجابة مني سيد ريتشاردز.

نظر إليها مبتسماً:

ـ غاي.. من الأفضل أن تناديني باسمي.. السكان بسانت آغاث متعارفون.. مناداتي بالسيد ريتشاردز ستؤكد بأنك دخيلة

التفتت إليه.. وهل هي حقاً صغيرة؟

هز برأسه

ـ أجل.. أو كانت.. إلى أن وصل فريق التصوير السينمائي.

ـ أتعرف بأمر الفيلم الذي يصورونه هناك؟

ضحك: أجل آنسة شرايدن.. أعرفه حقاً.

قالت بدون تفكير: آيرين.

التفت عيناه بعينيها: ماذا؟

ـ آيرين.. إنه اسمي.. إذا كنت سأناديك باسمك الأول يجب..

صمتت، بلون الاحمرار الخفيف وجنتيها:

ـ أنت تعرف أن هذا هو اسمي.

لامست الابتسامة البطيئة التي أصبحت تعرفها جيداً فمه:

ـ أجل.. لكنني أردت سماعك تطلبين قوله مني.

التقت عيونهما، واختنقت أنفاس آيرين.. فقد أصبح اسمها مداعبة لذيذة حين لفظه..

أدارت وجهها بسرعة، تنظر إلى الطريق أمامها.. كانا ينسلقان إلى

أعلى. فأعلى. في الحبل. واستطاعت أن ترى المنحدرات الصخرية نحو الوادي. تطالما تشوقت لأن ترى مثل هذا المنظر. لكنه الآن أصبح كالضباب. الشيء الوحيد القادرة على رؤيته بوضوح هو هذا الرجل الجالس إلى جانبها.

أرجعت رأسها إلى الوراء تتنفس بعمق. ما بالها؟ إنه الإرهاق على الأرجح. فقد أمضت بطريقة أو أخرى يومها الذي مضى في الهواء. أجل إنه الإرهاق. لهذا تحس بأنها مرتبكة، ضعيفة. ولا دخل لهذا بغاي ريتشاردز. أبداً.

- . . . مهتمة بالتاريخ؟

بللت شفتيها:

- آسفة. كنت أفكر بسانت آغاث. هل سألتني شيئاً؟

ابتسم:

- أجل. سألتك إذا كنت مهتمة بالتاريخ.

هزت رأسها نفياً:

- لا. ليس بشكل خاص. لماذا تسأل؟

هز كتفيه:

- لا يصل لسانت آغاث الكثير من السواح. يهتم كل من يصل إليها عادة بالحصون والأسوار. الرومانية منها.

- لم أكن أعرف بوجودها.

- إنها الوحيدة المهمة في البلدة. إضافة إلى قدمها الأثري إنها مكان صغير ورائع. هذا إذا كنت تحبين منازل القرن الخامس عشر، والسهول الهادئة.

ابتسمت: أظن أنك لا تحبها.

هز كتفيه مرة أخرى:

- لا بأس بها، أعتقد. لكنني معتاد على الحياة بطريقة مختلفة. تتواجد عادة حلبات السباق في أمكنة تكون فيها الأضواء أكثر إنارة. هازارد يقول إن سانت آغاث مكان هادىء. وأبادره بالقول دائماً. بأن القبر هادىء أيضاً.

ابتسمت آبرين بدورها. مفكرة. أجل هذا صحيح. لن يعرف رجل مثله السعادة طالما هو في قرية صغيرة هادئة. صحيح أنها تعرف القليل عنه إنما يخالجها الشعور بأنه يهوى الإثارة، وأنه يحتاجها كما يحتاج المرء للطعام والشراب.

أجفلت فجأة. هازارد؟ أيعني مارتي هازارد؟ يجب أن يكون هذا.

- غاي. هل أنت مع طاقم الفيلم؟

تنهد ينظر إليها بسرعة، ثم يعود إلى الطريق. لسوء الحظ. . . نعم.

قطبت آبرين.

- لكن سبق أن قلت بأنك سائق سباق.

تحرك بغير ارتياح:

- أجل. هذا ما أستمر في قوله لنفسي.

- لا أفهم. إذا كنت سائق سباق. .

ضحك بصوت منخفض:

- أعذري قلة تواضعي. أنا لست بسائق عادي. بل أنا في القمة.

نظر إلى وجه آبرين المجرد من التعابير، وضحك:

- نسيتين إلى غروري، تعرفين هذا؟ تستمرين في النظر إلي وكأني أتكلم بلغة المريخ.

- أنا آسفة. لكنني قلت لك، أنا لا أعرف شيئاً عن. .

تنهد: ولا هازارد يعرف. لهذا طلب مني أن أعمل كمرشد للفيلم. عرفنا بعضنا بواسطة شخص في حفلة في نيويورك. ثم التقينا معاً صدفة داخل حمام في زوريخ.

كررت تتساءل: زوريخ؟

راقبته متذكرة قوله عن التكلم بلغة المريخ. كان يعني المزاح. لكن في كلامه حقيقة تكفي. ولا شك بأنهما من عالمين مختلفين. علقت تعاسة غريبة في حنجرتها. ثم قال ضاحكاً:

- أظنها زوريخ. أم أنها كانت برشلونة؟ لست واثقاً تماماً. الأمر لا يهم. كل ما أتمناه لو أنني كنت منوماً ساعة دعاني. هذا ما أردده لنفسي على أي حال. كنت منهوراً حين وافقت على أن أكون المستشار

www.liilas.com

النقني لديه.

هزت آيرين برأسها:

- أنا لا أفهم شيئاً.. لم قبلت طالما ترفض الفكرة؟

- ومن يعرف.. ربما الغباء أو الضجر.. يعتقد مدير أعمالي بأنه الوقت المناسب لأجرب شيئاً مختلفاً.. وأعتمد على الدعم المالي من خلال هذا الفيلم، كما أنه أمامي حوالي الشهر ونصف الشهر قبل موعد سباقي القادم.

ضحك بنعومة وأكمل:

- صدقيني.. أنطلع شوقاً للسباق.

ابتسمت: يبدو كأنك تجعل الأمر مثل..

- الجنة والنار معاً.. حين أكون في حلبة السباق أتمنى أن أكون في مكان آخر.. والعكس صحيح.

قالت مبتسمة: لك حياة غريبة.

هز كتفيه:

- لكنها مثيرة على أية حال.

- والفيلم؟ هل تمتعت بالعمل فيه؟

- إنه أمر مختلف.

- أجل.. بالتأكيد مختلف.. العمل في فيلم سينمائي مثير حقاً.

رفع يده اليمنى يمرر أصابعه في شعره الأسود.

- صدقيني ليس كذلك.. لكن الأمور ستتحسن مع نهاية الشهر.. سنغير موقع التصوير.

نظرت إليه بدهشة: تغيرون الموقع؟

- أجل.. يرغب هازرد في تصوير بعض مراحل تحضير السباق في موناكو..

تنفست بعمق:

- موناكو؟ لكنني ظننت.. لا بد من وجود خطأ ما.. أخبرتني ويندي بأنها ستبقى هنا فترة الصيف.. قالت..

التفت غاي إليها: ويندي؟

- أجل ويندي غويغ.. أتعرفها؟ إنها..

ضحك بصوت منخفض

- أوه.. أجل أعرفها.. أعرفها تماماً.. يمكنك القول إننا معرفة قديمة.

شيء ما في صوته جعلها تنظر إليه بحدة.. لم تفارق عيناه الطريق العامة، ولم ترَ سوى جانب وجهه.. أدار رأسه فجأة نحوها:

- بالطبع، كان يجب أن أخمّن.. أنت ابنة خالها.

هزت آيرين رأسها:

- هذا صحيح.. وكيف عرفت؟

ضاق فمه:

- قالت إنك قادمة لكنني لم أصدقها.

- أنا آسفة.. لكنني لست..

ركز عينيه على وجهها:

- قالت إن كل ما عليها أن تفعل، هو القول لك إنها بحاجة إليك، وستأتين راكضة.

سألت بصوت بارد:

- أقالت هذا حقاً؟

- ابنة الخال الصغيرة من الميسوري.

ردت ببرود أكثر:

- من الميسوري.. أنا من الميسوري ولست من الميسوري.

بدا غاضباً لسبب ما:

- وهل يهم هذا؟ يا فتاة ويندي الصغيرة، الفلاحة...

قاطعته بغضب:

- أنا لست هكذا.. أنا لست فلانتها، ولست فلاحة، ولست صغيرة.. وأشكرك لو أبقيت هذه الأشياء الثلاثة في ذهنك.

صمتت بسرعة وقد ظهر أمامها شكل أبيض خطا إلى الطريق بأناقة.. وصاحت برعب:

- غاي! احذر.. أمامك قطيع من الماعز!

داس بقوة على المكابح.. امتلأ الجو برائحة المطاط المحروق من جراء صرير الإطارات فوق إسفلت الطريق وخرجت السيارة عن الطريق لتقف على الكتف الترابي.

نظرت آيرين من النافذة، وتصاعدت معدتها إلى حلقها لرؤيتها حجراً كبيراً دفعته الإطارات يتدحرج على جانب التل الشديد الانحدار خلف السيارة..

ملأ الصمت السيارة، وأصبح غاي إلى جانبها.. والتفت ذراعه حولها يجذبها نحوه.

- آيرين.. آيرين.. هل أنت بخير؟

هزت رأسها وهمست:

- أجل.. أنا على ما يرام.. فقط.. فقط..

مرر أصابعه تحت ذقنها، ورفع وجهها إليه:

- أمتأكدة أنت؟ ألم تصطدمي بشيء؟ أما من كدمات؟

- لا.. صدقاً.. لم أصطدم بشيء.. أنا..

كانت ذراعه لا تزال حولها تشدها إليه.. وبدأ الصمت يتعاظم.. ملأت رائحة الأزهار البرية المكان الضيق في السيارة، مما جعلها تحس بالدوار.. وامتزجت رائحة أخرى برائحة الزهور.. رائحة غاي مزيج مثير من العرق، والرجولة.

- آيرين..

همس باسمها وحرك صوته عرقاً صغيراً خفق بداخلها.. قالت:

- أرجوك.. غاي الماعز.. هل هي بخير؟ هل دهسناها؟

نظر إليها لحظة طويلة، ثم أخذ يبتسم وقال بنعومة:

- أرأيت؟ كنت محقاً.. أنت فلاحة.. لأنك قلقة على الماعز أكثر من قلقك عليّ.

- ماذا تعني؟ أنا..

- هل ستسألينني عما إذا كنت بخير؟

- ألم أسألك؟ أنا آسفة.. لكنني ظننت.. أعني أنك تبدو بخير.

لمَ يجب عليه أن ينظر إليها بهذه الطريقة؟ إنه ينظر إليها وكأنه

يعانقها.. أخيراً ابتسم:

- أنا فعلاً بخير.. وكذلك الماعز..

- وهل.. سالت آغاث.. قريبة؟

- أجل.

- إذن، بإمكاننا الخروج لنتمشى قليلاً.. بإمكاننا..

أمسك وجهها بيده.. وسألها بنعومة:

- أهذا ما تريدينه حقاً؟

أخذ رأسها يدور.. ماذا تريد؟ فكرت بيأس.. منذ ساعة أو ساعتين، قالت إنها تريد الوصول إلى سالت آغاث وأن لا ترى بعدها غاي ريتشاردز.. وهذا ما كانت تحسه بالضبط قبل الحادثة. الآن وهو يضمها بين ذراعيه.. لم تعد واثقة.

تمتم غاي باسمها مرة أخرى، فرفعت عينيها إلى عينيه. بدوا في ضيق السيارة، وكأنهما الشخصان الوحيدان في الكون.. كان سيعانقها، وتعرف هذا.. وتعرف كذلك أنها ستستطيع منعه، كل ما عليها هو القول له إنها تريد الخروج من السيارة.. لكنها لم تستطع.. لم تستطع.. إنها..

بفجائية ترجّ العظام، انفتح الباب.. رفرفت آيرين عينيها كمن يستيقظ من حلم، ونظرت إلى ما وراء كتفي غاي.

حبست أنفاسها.. كانت ويندي تحدق إلى السيارة.. وجهها منكمش بإحساس بشع جمّد دم آيرين.

قالت بصوت منخفض: ويندي؟

نظرت ابنة عمتها إليها بصمت.. فرفعت آيرين يديها تضعهما على صدر غاي.. وكررت: ويندي!

تركها غاي ببطء.. ثم استدار نحو الباب.. راقبته بينما كانت ويندي تنظر إليه.. ثم تغيرت تعابير وجهها ومدت نفسها نحوه تقول مقطوعة الأنفاس:

- غاي.. حبيبي.. سمعنا كلنا صرير المكابح.. واعتقدنا.. لكنك بخير.

التفت غاي إلى آيرين، وقال:

ـ أجل.. أنا بخير.. ولقد جئتك بمفاجأة.. ألن تقولي مرحباً لنسيبتك؟

كانت ابتسامة ويندي مشرقة بما يكفي لإضاءة السماء في الليل، وهمست:

ـ ليس قبل إلقاء التحية عليك حبيبي.

وعانقته.

راقبتهما آبرين مصدومة.. ثم أدارت رأسها تنظر خارج النافذة دون أن ترى.. بدا العناق لها وكأنه دائم إلى الأبد.. مع أنها كانت تعرف العكس في أعماقها، فقد دام العناق بما يكفي أن لا تفوتها الحقيقة.

غاي ريتشاردز وابنة عمتها عاشقين.

* * *

نظرت ويندي إلى المرآة ذات الإطار المذهب القائم المعلقة على الجدار في غرفة جلوسها، مقطبة..

ـ إما أن يكون النور ساطعاً هنا، وإما أن يتلاشى تماماً.. وأجد صعوبة في وضع الماكياج صحيحاً..

تنهدت آبرين وهي تغوص بعمق على كنبة قديمة..

ـ ظننتك قلت إن المكان قديم وساحر.

قالت نسيبتها مبتسمة:

ـ إنه مكان قديم على أية حال.. يجب أن تعترفي بهذا.

وقفت آبرين بسرعة، نظرت إلى الكنبة، ثم رفعت صندالاً ذهبياً مرتفع الكعبين وقالت:

ـ ومزدحم بغير نظام.

ثم رمت فردة الصندال.. فضحكت ويندي:

ـ مثل أيامنا القديمة.. أليس كذلك آبرين؟

ـ أجل.. مثل الأيام القديمة.

ـ كنت أنوي الترتيب قليلاً، لكنني مشغولة جداً.

تحركت ويندي في غرفة الجلوس الضيقة.

ـ على أي حال، ما الفائدة؟ سننتقل من هنا بعد أسبوع أو ما يزيد.. صحيح؟

تنهدت آبرين وهي تتهادى مجدداً إلى الصوفا.

ـ كنت أتمنى لو أخبرتني مسبقاً حول تغيير الموقع ويندي.

ـ ولماذا؟ لن يغير هذا شيئاً.. ستبقى ابنة خالي المفضلة إلى جانبي..

نقرت كعبيها بحدة فوق الخشب العريض في أرض الغرفة وهي تقطعها لتجلس قبالة آبرين وتكمل:

ـ وستكون حقاً كالأيام الماضية آبرين.. لكنك على الأقل لن تحتاجي إلى التفتيش عن أخطائي وإصلاحها كما في طفولتنا.

ابتسمت آبرين بلطف: لا أنوي فعل هذا.

نظرت ويندي إليها ثم قالت بعد فترة من الصمت:

ـ على أي حال.. فكرت أن نبقى في غرفتين منفصلتين هذه المرة.. خذي أنت غرفة الجلوس هذه.. فالصوفا تنفتح لتصبح سريراً، تقسم المدام أنه مريح.. وسأحتفظ أنا بغرفة النوم.. كيف يبدو لك هذا؟

نقلت آبرين ثقلها فوق الصوفا العتيقة.. لا شك أن الفراش المخبأ غير مريح مثله مثل المفارش التي تجلس عليها الآن.. لكن النظرة السريعة إلى غرفة ويندي كانت كافية لها لاتخاذ قرار سريع:

ـ يبدو لي لا بأس به.

هزت ويندي رأسها:

ـ جيد.. ضعي ملابسك على العلاقة خلف باب الحمام.

هزت كتفيها كأنها تعتذر..

ـ كنت أنوي إفراغ أحد أقسام الخزانة، لكنها مليئة جداً.. وبدا لي من السخافة إخراجها من مكان لأضعها في مكان آخر.. لا تمانعين، أليس كذلك؟

وقفت آبرين لتسير نحو خزانة الأدراج، تفتح أحدها وتنظر إلى داخله:

ـ لا.. لا بأس في هذا.

ـ جيد . . لقد سوينا هذا الأمر إذن .

هزتا رأسيهما بخفة لبعضهما في الصمت الذي تلا . . ثم تنحنحت آيرين تجلو حنجرتها .

ـ ترسل لك الليان بتحياتها .

بدت نقطيبة صغيرة بين عيني وبندي الخضراوين : من؟

ـ الليان . . ألا تذكرينها؟ كانت معنا في المدرسة .

هزت كتفيها :

ـ صحيح؟ يبدو أنني لن أستطيع وضع وجه للاسم .

ساد صمت آخر . . وتنحنحت آيرين مرة أخرى .

ـ بالكاد أستطيع الانتظار لإلقاء نظرة على سانت آغات . . تبدو البلدة ساحرة . . لم أكن أعلم بوجود الآثار الرومانية هنا .

تثاءبت وبندي :

ـ وهل هناك آثار هنا؟

تثاءبت مجدداً، ثم ابتسمت ترجع خصلة شـ ردا الأشقر عن عينيها :

ـ آسفة . . لقد تأخرت في السهر ليلة أمس . ذهبت زمرة منا إلى ناد ليلي في وسط نيس . . وكانت لنا سهرة عاصفة .

امتد الصمت مرة أخرى بين الفتاتين . . تنهدت أخيراً آيرين، ثم وقفت لتسير إلى حيث حقيبتها، ورفعتها :

ـ من الأفضل أن أفرغ ثيابي منها . . لا شك أن الثياب قد تجعدت الآن . .

ـ كنت أظنك ستنامين قليلاً قبل أن تفعلي أي شيء آخر . . ألست مرهقة؟

رفعت آيرين حقيبتها إلى ظهر خزانة الأدراج :

ـ يجب أن أكون مرهقة، وأعرف هذا . . لكنني لست كذلك . أعتقد أن هذا بسبب الإثارة .

ـ أجل . . لقد نجوت بأعجوبة .

شيء ما في صوتها جعل آيرين ترفع بصرها . . كانت نسيبتها تنظر إليها عبر عينين ضيقتين . . ولا تزال الابتسامة تعلو وجهها، لكنها مرت

بتحول جذري . . قالت آيرين بسرعة :

ـ لم أكن أفكر بالحادثة . . بل عنيت كل ما تبقى . . الرحلة الطويلة . . تغيير الوقت . . رؤيتك مجدداً .

قالت وبندي ببطء، وعيناها مسمّرتان على آيرين :

ـ ولقاء غاي ريتشاردز . . لا تقولي لي إن هذا ليس مثيراً . . على أي حال إنه معروف جداً .

رفعت آيرين كومة كنزات قطنية من الحقيبة، وانحنت إلى الدرج الأسفل . . دلتها غريزتها أن هذا الحديث لن يكون لطيفاً . .

سألت بعفوية :

ـ وهل هو معروف؟ أنا لم أسمع باسمه من قبل . . فأنا لا أتابع الأخبار الرياضية كثيراً .

استقامت لتأخذ كومة ملابس أخرى من حقيبتها . هزت وبندي رأسها :

ـ لا . . هذا صحيح . . أنت لا تلاحقينها .

سمعت أصوات ضجيج الرفاصات، ثم وقع كعبي وبندي فوق الأرض . . رفعت آيرين رأسها حينما استندت وبندي إلى الجدار قرب خزانة الأدراج . .

ـ مع ذلك، أظن أنك أيضاً سمعت به . . إنه شهير جداً .

ابتسمت آيرين :

ـ لم أكن أعرفه . . أعطني هذه المناديل أرجوك . . شكراً .

راقبت وبندي نسيبتها للحظات، ثم تنحنحت :

ـ لم تشرحي لي أبداً كيف التقيتما؟

ـ قلت لك، لقد سمع حديثي في مكتب تأجير السيارات و . .

قالت وبندي تقاطعها بلطف :

ـ لا يبدو هذا معقولاً من نسيبتي الصغيرة . . أن تترك رجلاً غريباً يقنعها بركوب السيارة معه .

تصاعد الاحمرار البطيء إلى خدي آيرين، وقالت بهدوء :

ـ لم أعد نسيبتك الصغيرة . . ألم تلاحظي هذا؟

صمتت ويندي قليلاً ثم قالت بصوت بارد:

ـ لا.. لم تعودي صغيرة.. أليس كذلك؟

رفعت آيرين رأسها إذ من الغباء دخول الجدال معها.

قالت ببطء:

ـ بالنسبة لقبولي دعوة غاي.. لم يكن لدي خيار آخر، إما أن أقبل أو أصرف ثروة صغيرة أجرة التاكسي.. ثم نحن لم نكن فعلاً غريبين..

تنفست ويندي بحدّة مما جعل أنفاسها تلهث:

ـ وماذا من المفروض أن يعني هذا؟

هذا يعني أنني وضعت قدمي على أول الجدال.. نظرت إلى ابنة عمتها، وابتسمت بإشراق:

ـ لقد التقينا في حجرة الانتظار الخاصة بالدرجة الأولى في مطار نيويورك.. حصل صديق لي.. بل صديق لإليان في الواقع.. على إذن..

ـ آه.. هكذا إذن.. التقيتما في حجرة الانتظار وتحدثتما فأخبرته أنك قادمة لزيارتي.. وقال إنه يعرفني.. و..

ـ لا.. في الواقع.. لقد سمعني أقول لموظفة مكتب تأجير السيارات بأنه عليّ الوصول إلى «سانت آغاث».. فعرض عليّ المساعدة. والحمد لله أنه فعل.. لولاه لكنت إلى الآن في المطار.

لماذا تدافع عن نفسها؟ كان دورها بريئاً في كل ما حصل.

ضحكت ويندي، لكن بصوت مصطنع:

ـ إنه ولد كشاف مساعد.. أليس كذلك؟ لست أدري إذا كان سيتلهف لعرض مساعدته لو كنت أكبر سناً بعشرين عاماً ولديك شارب.

وقعت تعليقة من يد آيرين لتصطدم بالأرض.. قالت وهي تنحني لتلتقطها:

ـ هل أعطاك رئيسك إجازة لبعض الظهر؟ هذا لطف منه. كنت آمل أن يكون لنا معاً المزيد من الوقت اليوم..

قاطعتها بحدة:

ـ كان على غاي أن يكون أكثر حذراً على تلك الطريق.. فهو يعرف أنها تلتوي كالأفعى.

ـ لم تكن غلطته.. المعزى..

ـ أجل.. هذا ما قاله.

ابتعدت ويندي عن الجدار، وسارت ببطء إلى منتصف الغرفة.. وسألت ببرود وهي تجلس على الصوفا:

ـ ماذا كان يجري لحظة وصلت إلى السيارة آيرين؟ بدا لي وكأنه كان يلعب دور الطبيب.

احمر وجه آيرين.

ـ أعتقد.. أنه كان يحاول فقط التأكد من أنني سليمة..

ـ صحيح؟

كان تقريراً أشبه بالاستجواب. وقررت آيرين أنه من الأفضل أن لا ترد.. ذكّرتها تلك النظرة في عيني ويندي بقطة كانت تمتلكها العمة أوليندا يوماً.. كانت تهرهر بلطف، ثم تمدّ يدها لتخدش بمخلبها.. وكانت العمة تقول: اضربيها على أنفها بحدة.. إنها الطريقة الوحيدة لتوقف هذه الغيبة ألاعيبها.

نظرت آيرين مباشرة إلى ابنة عمتها وقالت بصوت منخفض:

ـ اسمعي ويندي.. أنا لست مهتمة أبداً بسيدك السيد ريتشاردز.. هل فهمت هذا جيداً؟

ابتسمت ويندي: ألست مهتمة؟

ـ لا.. إنه لك كله.. صدقيني.

التوت ابتسامة الفتاة الأخرى:

ـ أجل.. هو بالفعل لي..

ثم تنهدت وقالت:

ـ أنا أفكر بمصلحتك آيرين.. كيف أشرح لك هذا دون أن أجرح مشاعرك؟ أنا أعرف غاي منذ فترة. ورأيت كم أن النساء يتنافسن ليقتربن منه. إنه من النوع الذي لا يستطيع مقاومة سحر وجه جميل.. وأنا لا أحمل عليه لأجل هذا.. ثم.. هو جميل المظهر..

توهج الاحمرار على خدي آيرين.. وقاطعتها:

ـ ويندي.. لقد قلت لك..

ـ كنا في «كان» الأسبوع الماضي، وأعطى توقيعه لفتاة . كانت جميلة جداً، ولم يستطع أن يقاوم القليل من العبث معها . هذا بالنسبة له مجرد لعبة . تعرفين كيف؟

رمت رأسها إلى الوراء وضحكت، ثم أكملت:

ـ أتعرفين بأنها قد اتصلت به في منتصف الليل؟ وهذا ما أبقانا معاً صاحيين . صحيح أننا لم نكن نائمين . إذا كنت تفهمين ما أعني.

وارتفع حاجباها بأناقة . وردت آيرين بهدوء:

ـ لست بحاجة إلى رسم صور لي وبندي . أنا لست طفلة.

نظرت النسيبتان إلى بعضهما لثوان عدة، ثم وقفت وبندي:

ـ أظن أنك بحاجة إلى الراحة آيرين مهما قلت لي. اسمعي كلام خبيرة . أريدك فقط أن تعرفي أنني مسرورة بوجودك هنا.

أدهش الدفء في صوت وبندي آيرين، فابتسمت لها بدورها: حقاً؟

ـ أجل . بكل تأكيد.

ـ أتعرفين . وأنا قادمة إلى هنا في الطائرة، كنت أفكر أن سنوات مرت منذ قضينا وقتاً معاً . وأنا مسرورة لأنني قررت أن . . .

ربتت وبندي كتفها دون وعي وأكملت طريقها إلى المرآة.

ـ وأنا كذلك . لقد ترك مترجم هازرد الفرنسي العمل . هل قلت لك هذا؟

هزت آيرين رأسها:

ـ لا . لم تقولي شيئاً.

ـ حسناً . لقد ترك العمل . يا للرجل الكريه، ودون أي إنذار . ولم يستخدم هازارد أحد بعد . لذا كنت أعمل جاهدة . ولسوف تشعرين بحركة العمل في الغد . أليس كذلك؟

تنهدت آيرين بالتأكيد

ابتسمت وبندي:

ـ جيد . سأراك فيما بعد . ولا تقلقي إذا استغرقت في النوم، سأطلب من المدام أن ترسل لك صينية الإفطار.

ـ لا تزعجي نفسك بهذا . لا أريد أن أزعج صاحبة المكان بسببي.

ـ بل من الجيد إزعاجها من وقت لآخر . على أي حال . من الأفضل لها أن تكسب ما تدفعينه لها.

اتسعت عينا آيرين الزرقاوتين: ماذا تعنين . . ؟

ـ نريد أجراً زائداً للشراشف والمناشف التي سنستخدمينها.

ـ لكنني ظننت . .

ـ أعرف . . وهذا ما ظننته أنا كذلك . لا تقلقي . لن يكون المبلغ كبيراً . علاوة طعامي ستغطي كل مصاريف طعامنا تقريباً . . و.

ـ ماذا تعنين بتقريباً؟ أنت قلت كل شيء وبندي . لا أظنك تفهمين . ميزانيتي متواضعة جداً.

ـ توقفي عن القلق! المعيشة رخيصة جداً هنا . وسنكون على ما يرام . سترين.

نظرت وبندي إلى ساعتها:

ـ أوه . يا إلهي . وقعت في مشكلة . أعطاني هازرد مدة ساعة لأقضيها معك . ولا شك بأنه يرغي ويزبد الآن . اسمعي . إذا استيقظت قبل السادسة انزلي إلى الموقع . وسأعرفك إلى الجميع . يمكن للجميع أن يدلك على الموقع.

جلست آيرين على طرف الصوفا ما إن خرجت وبندي . يا لها من كارثة تبدو أمامها! أولاً اللقاء مع غاي . ثم الجدال مع وبندي . وفوق كل هذا، يبدو أن إجازتها المجانية ستكلفها أكثر مما توقعت.

أسندت رأسها إلى الوراء متنهدة تحدق بالسقف . يمكنها أن تدبر ظهرها ونعود رأساً إلى أميركا . لكن سيكون من المريع محاولة شرح الأمور لإليان وللآخرين . ثم إن التذكرة محجوزة إلى ما بعد أسبوعين من الآن.

وقفت آيرين، ثم سارت ببطء عبر الغرفة نحو غرفة نوم وبندي . كانت متعبة أكثر مما تبدو . وما تحتاج إليه قيلولة لتجلي تفكيرها . ستجد في البداية فراغاً في الخزانة تضع فيه حقيبتها الفارغة، ثم ستأخذ دوشاً.

هزت رأسها وهي تفتح باب غرفة النوم . أجل . . إنها بحاجة إلى الراحة . قطعاً.

كانت الغرفة مظلمة . . المصاريع الخشبية الداكنة مقفلة فوق النوافذ تغلف الغرفة بعتمة غير طبيعية . . في وسط الغرفة سرير ضخم بأربعة قوائم مرتفعة .

وضعت ببطء حقيبتها أرضاً . . يبدو السرير كمسرح مرتفع المفارش بلونها الأبيض ، الأغطية من الدانتيل .

أحست أن يداً تطبق على خناقها . . وسمعت صوت ويندي تقول لها : «بإمكانك أخذ غرفة الجلوس وسأحتفظ أنا بغرفة النوم» ولقد ظنت أن هذه فكرة جيدة . طريقة لإبقاء فوضوية ابنة عمتها مخبأة في مكان واحد .

لكنها الآن تتساءل لماذا كانت بسيطة التفكير هكذا . هذا الفراش ، فراش ويندي ، ليس فراشاً لشخص واحد . لا شك أنه حيث تجتمع ويندي مع غاي ريتشاردز . .

أحست بخفة في رأسها . . خرجت بسرعة من الغرفة لتجلس على كرسي في الخارج ، وكانت ترتجف . . يا إلهي ماذا دهاها؟

وقفت بعد لحظة لتذهب إلى الصوفا . . جلست ببطء ثم رفعت ساقيها وتمددت . . أحست بارتجاف فتكورت . أشعر بالبرد حتى في هذا الطقس الدافىء . . مدت يدها لتجذب إليها البطانية الأفغانية الموضوعة على ظهر الصوفا

بعد قليل توقفت عن الارتجاف . وزفرت آيرين نفساً طويلاً . ثم أغمضت عينيها . . إنها مرهقة . . هذا ما بها . . ولهذا كانت كل ردات فعلها عدائية . ستبدو الأمور بعد قيلولة أفضل . .

وهبطت رموشها على خدها . . ونامت .

حين استيقظت ، كانت ظلال المساء الباكر تهبط على الجدران والأرض . . وهي تتثاءب ، وتمدد ذراعيها فوق رأسها ، دفعت بالغطاء الأفغاني جانباً . كانت صينية طعام موجودة على الطاولة قرب الصوفا . وبدأت معدتها تتضور جوعاً لمنظرها

أحست أنها أفضل حالاً ألف مرة بعد أن أنهت الطعام . النوم ، الطعام والشراب ، أعادت إليها معنوياتها ونشاطها . وفكرت . أنا في فرنسا . . فرنسا . . ذهبت مبتسمة إلى النافذة ، ونظرت إلى الخارج

كانت غرفة الجلوس تطل على ساحة البلدة . . تحتها كانت قطة سوداء تتمدد ورجلان عجوزان يجلسان أمام طاولة خشبية عتيقة منكبان فوق لوحة نرد ، وأصابعهما ملتفة بخفة حول كوبين من القهوة .

تنفست آيرين بعمق . . كان الجو عابقاً بشذا الأزهار البرية ، والخبز الطازج . . إنه يوم رائع لأن يتمتع به الإنسان في هذا المكان بالذات .

بدت لها مشاكل الصباح أكثر بساطة الآن . سيكون المال قليلاً . . لكنها ستتمكن من تدبير نفسها . إنها معتادة على توفير البنسات ، فوالديها لم يتركا لها شيئاً سوى ذكريات محببة ، لم يكن لدى عمتها وزوجها المال الكافي ، وإذا كان لأحد أن يجد طريقة لقضاء الصيف دون إفلاس ، فها هي .

أما بالنسبة لعلاقتها مع ويندي . . حسناً . . كانت تعرف جيداً أنها أكبر من أن تؤمن بالمعجزات . . ويندي هي ويندي ، أنانية ، لا تفكر سوى بنفسها ، ولا زالت عينها على كل وسيم من الرجال .

مسكينة ويندي . . من الصعب أن لا تحس بالأسى عليها . . فهي تنكر غيرتها العمياء ، ولكن عبثاً تحاول فهي ظاهرة بوضوح . . إذ يستطيع أي شخص كان أن يلاحظ ذلك مهما ادعت . . إنها لا تحب . . ماذا سمتها؟ . . اللعبة الصغيرة التي يلعبها غاي ريتشاردز مع النساء .

تنفست آيرين بعمق . . لا عجب أنها لم تشعر بالارتياح مع غاي منذ البداية . . لم يكن يعبث ، بل كان يلعب لعبة مختلفة . . إنها لعبة لم تلعبها قبلاً ، ولن تبدأ في لعبها الآن .

تلاشت ابتسامتها . . أما بالنسبة لمسألة أن تأتي ويندي بغاي إلى غرفة نومها . . حسناً . . ولو فعلت ، فهذا شأنها . .

بسرعة ، وقبل أن يتسلل مزاجها الجيد مبتعداً ، خلعت ملابسها المجعدة بسبب النوم وأسرعت إلى الحمام لتأخذ دوشاً سريعاً .

* * *

أعطت المدام آيرين وصفاً دقيقاً عن مكان الموقع . . بدا أن القرية قد نقلبت وجود طاقم الفيلم بهدوء كاف . . لكن سيارات الطاقم

والمقصورات المجرورة احتلت معظم الطرقات الرئيسية الضيقة، والتي تقود كمقرب البوصلة إلى أطراف القرية، حيث كان يجري التصوير النهاري.

أبطأت آيرين خطواتها وهي تقترب.. كانت تتوقع أن تجد سحراً في الموقع.. لكنها، بدلاً من ذلك، رأت الأسلاك وغابة من أذرعة الإضاءة والصوت، وعجلات الكاميرات. يكتظ المكان بجميع الأشخاص.. ويتكلمون مزيجاً مجنوناً من الفرنسية والإنكليزية باللكنة الأميركية.

صاح صوت عميق: الرؤوس إلى فوق!

تراجعت آيرين إلى الوراء في الوقت المناسب لتبتعد عن طريق رجلين يدفعان لوحة كبيرة، لما كان يبدو مدرجاً مزدحماً بالنظارة.. استدارت آيرين تنظر لي الصورة وهي تمر بها.

وقال صوت عميق من خلفها، بنعومة:

ـ إنها تدعى مسطحاً.

استدارت آيرين بسرعة لتجد نفسها تنظر إلى عيني غاي ريتشاردز الزرقاوين الفاتحتين.

ـ لقد أجفلتني.

ابتسم بكسل:

ـ أنا مسرور لرؤيتك تقفين مجدداً على قدميك..

ـ كل شيء يبدو لي مربكاً.

هز رأسه:

ـ إنه مربك فعلاً. اقتنعت في أيامي الأولى أنه من الأسلم لي أن أكون في حلبة السباق في الرومان؟.. لكن، مع الوقت كل شيء أصبح منطقياً.. لا تبدين بحال سيئة..!

وهو كذلك لم يكن يبدو سيء الحال، لكنها لن تقول له هذا. وبدا لها أنه خارج لتوه من الحمام.. وارتفعت يدها دون وعي إلى شعرها المبتل، فالتقت عيناه عينيها وضحك:

ـ أرأيت؟ كان يمكننا أن نصيب عصفورين بحجر واحد ونوفر الكثير من الماء.

التمعت عينا آيرين: أتمنى لو أنك لا تفعل هذا.

ارتفع حاجباه: أفعل ماذا؟ كنت فقط أشير إلى..

ـ كل ما تفعله هو إغاظتي.. ولا يعجبني هذا.

ـ ولماذا تظنين هذا؟

رفعت ذقنها:

ـ لماذا تستمر في قول أشياء تصدمني؟

ـ ربما لأنني مأخوذ بالطريقة التي تتصرفين بها بسذاجة.

نظرت إليه نصر على أسنانها أمام الضحكة التي كانت واثقة أنها ستراها على وجهه.. لكن عيناه كانتا جادتين.. وهذا ما جعلها تفقد توازنها، وأحست بالاحمرار يتصاعد إلى وجهها.

ـ كيف تفعلين هذا آيرين؟

ـ أفعل ماذا؟

ـ كيف تحمرين، أعني.. إنه احمرار جميل جداً.

ـ إنه ليس جميلاً أبداً.. إنه فقط شيء.. شيء.

ارتسمت ابتسامة على فمه:

ـ شيء يحصل لك حين تكونين معي؟ كم أحب الاعتقاد بصحة هذا.

ـ لماذا؟ ألأنه يسليك؟

طافت عيناه في وجهها، ثم ارتفعتا لتنظرا إلى عينيها:

ـ لا.. هذا لا يسليني أبداً.

تنفست بعمق.. ثم تذكرت.. إنه يلعب الألعاب.. وبطريقة ما كان يجرها إلى هذه اللعبة.. لكنه لن يستطيع.

قالت أخيراً: ربما أراك فيما بعد، عمت مساءً سيد ريتشاردز.

لحق بخطوتها وهي تتجه إلى الموقع:

ـ غاي.. ظننت أننا اتفقنا على هذا. تعالي سأعبر بك عبر المكان.

وأمسك بمرفقها.. اقشعرت بشرتها حيث لامستها أصابعه وأحست بتيار كهربائي يسري بينهما.. قالت تشد نفسها من قبضته:

ـ لا بأس بهذا.. سأنتظر.

ـ اسمعي.. ألا تظنين أنه من الأفضل لك أن تكون عندك فكرة عن

مجرى الأمور قبل أن تتجولي في المكان وتسببي لنفسك المتاعب؟

هذا صحيح . . فهناك معدات مكومة في كل مكان . . وهزت رأسها على مضض : أعتقد هذا .

ابتسم :

ـ هكذا أفضل . على أي حال ، قد ترغبين في أن تعطي انطباعاً أولياً جيداً .

نظرت إليه :

ـ أجل . . لكن في نفس من؟ لم أر من قبل مثل هذا العدد من الناس في مكان واحد . . أيتنمون جميعهم إلى العمل هنا؟

ابتسم لها :

ـ الأفضل أن تصدقي هذا . . احذري .

التفت ذراعه حول كتفيها ، وأبعدها عن كومة كابلات كانت ملفوفة كالأفعى السوداء على الأرض . . ضحكت متوترة .

ـ أعتقد أنه عليّ الانتباه حيث أسير .

ـ ستعتادين على المكان بعد أيام . . ما رأيك؟

ـ إنه . . مربك .

ابتسم لها : جداً . . خاصة لشخص غريب .

ـ سأتعلم .

ضحك :

ـ أنا متأكد من هذا . لكنني لم أكن أشير إليك ، بل كنت أعني نفسي .

نظرت إليه بدهشة :

ـ أنت . . ؟ لكنك لست . .

ـ آه . . لكنني غريب . هذا العالم غريب بالنسبة لي آيرين . معتاد أنا على السيارات والمحركات . . أشياء تلمسينها وتفهمينها .

حرك يده يشير حوله :

ـ أما هذا ، فهو مكان وهمي . . بعيد عن الحقيقة كما يبدو .

لا . . لا شيء حقيقي . . غاي ريتشاردز مثلاً كان آخر إنسان تتمنى رؤيته مجدداً . . أما الآن ، فها هي تسير معه ، يتحدثان بمرتياح . .

ومتندهش ويندي لهذا . . ويندي سوف . .

ويندي!

سألته بسرعة :

ـ أين قلت إن ويندي موجودة؟ في مكتب السيد هازارد؟

ـ ربما .

ـ لماذا لا تذهب إلى هناك إذن؟

ضحك : بكره مارتي أن يزعجه أحد حين يعمل . . لا تقلقي ، تستطيع ويندي أن تعتني بنفسها .

ـ لا بد أن عملها ممتع .

ـ سيكون ممتعاً أكثر لو كانت تعرف كلمتين فرنسيتين أكثر مما تعرف .

هزت رأسها : تقول ويندي . .

توقف غاي ، وأدارها نحوه :

ـ حسن جداً . . ماذا يجري؟

ـ لا أعرف ما . .

ـ بلى . . تعرفين . . أنت تذكرين اسم نسيبتك بين نفس وآخر . . وأعتقد أن هناك سبباً .

نظرت آيرين إليه :

ـ كنت أظنك أنت ستذكر اسمها . . على أي حال . . أنت وهي . .

تركها ودس يديه في جيبي الجينز . واسودت عيناه بشكل خطير :

ـ ما الذي قالته لك؟

رفعت ذقنها : كل شيء .

ابتسم بعصبية : أشك في هذا .

لهجته كانت تسخر منها ، لكنها تماسكت وقالت بهدوء :

ـ لا داعي لكل هذا ، وأنت تعرف . . وأظن أن ويندي غبية لو حاولت اختلاق الأمر . . لكن إذا كانت راضية . .

ـ ها أنت آيرين!

رفعت آيرين رأسها لسماع صوت ويندي . . كانت نسيبتها تبتسم ،

لكن لهجتها كانت جافة.

ـ بدأت أتساءل عما إذا كنت قد قررت نوم اليوم كله.

ـ استفقت منذ قليل، وجئت أبحث عنك، السيد ريتشاردز..

قاطعها بلطف:

ـ غاي.. لقد اتفقنا على هذا في نيس.

ابتسم ليوبندي، لكن عينيه كانتا باردتين:

ـ لم أرغب في أن تكون آيرين وحدها هنا في أول يوم لها.

ابتسمت له بحلاوة:

ـ أنت لطيفاً غاي؟ رائع منك أن تأخذ ابنة خالي الصغيرة تحت جانحك.. هل أكثرت من الأسئلة السخيفة؟

نظر غاي إلى آيرين، واشتدت حرارة ابتسامته:

ـ سؤال أو اثنين..

ـ حسناً.. سأتولى أمرها الآن.. مع أنه لا يوجد الكثير لأريه لها.. يبدو أن الجميع قد أنهى عمل يومه.. أتساءل آيرين، أتمانعين لو أجلنا جولتنا إلى الغد؟

قالت آيرين بسرعة:

ـ لا.. لا.. لا بأس في هذا.

كورت ويندي شفتيها:

ـ في الواقع تبدين متعبة.. ألا تظن أن هذا ظاهر عليها غاي؟

التمعت أسنانه في ابتسامة سريعة:

ـ ما أظنه هو أنها تبدو على ما يرام.

ساد صمت قصير، ثم تنحنحت آيرين:

ـ أحس فعلاً بالتعب.. أتمانعين لو عدت إلى الفندق ويندي؟

هذه المرة كانت ابتسامة ويندي حقيقية:

ـ بالطبع لا.. ألهمك.. ما تحتاجين إليه على الأرجح وجبة ساخنة جيدة، ثم راحة ليلية. لماذا لا تطلبين من المدام أن تحضر لك شيئاً.. هه؟ إنها تصنع «أومليت» رائعة..

نظرت إلى غاي وهي تتقدم نحوه، تلف أصابعها على ذراعه:

ـ سيذهب بعض أفراد الطاقم إلى نيس لتناول العشاء.. وقد قلت لهم بأنني سأجدك، لتنضم إليهم.

ـ يبدو لي هذا جيداً.. لكنني لن أستطيع هذه الليلة. لدي اجتماع صباحي مبكر مع منسق المناظر.

كوّرت ويندي فمها مجدداً، وبشكل جميل:

ـ لا تكن سخيفاً غاي.. يجب أن تتناول العشاء في مكان ما.

ابتسم وهو يبعد يدها عن ذراعه:

ـ أجل.. هذا صحيح.. ربما سأجرب أحد أطباق «الأومليت» التي تحضرها المدام.. هذا إذا كانت آيرين لا تمانع أن يكون لديها رفيق.

في الصمت المتوتر الصوت الوحيد الذي كانت تسمعه آيرين، وقع أنفاسها.. هذا الرجل لا يمكن تشجيعه، كيف يمكنه التصرف هكذا؟

أرجعت ويندي رأسها البلاتيني الشعر إلى الوراء وقالت بحدة والابتسامة المشرقة تعلو وجهها:

ـ حسن جداً.. أرى أنني مغلوبة على أمري.. لذا سأسهل الأمور لنا جميعاً.. سأرضى بالأومليت كذلك.. ما رأيكما بهذا؟

ابتلعت آيرين ريقها الجاف:

ـ يبدو لي.. يبدو..

فيما بعد وهي مستلقية دون نوم على فراش الصوفا المزعج.. تذكرت تلك اللحظات، وتساءلت عما إذا كانت ستتمكن من الردّ.. لكن غاي انبرى يتقدها. وضع يديه بعفوية على كتفي الفتاتين:

ـ عظيم.. على أي حال، لا نستطيع ترك آيرين لوحدها في أول ليلة لها في فرنسا.. أليس كذلك ويندي؟

بدا أن الوقت قد توقف وويندي تنظر إلى آيرين من فوق كتف غاي.. ثم قالت أخيراً: هذا ما يبدو لي..

حافظت على ابتسامتها المشرقة رغم البرودة الظاهرة في صوتها.

* * *

٣ ـ موعد مع الرعب

انفتح باب مكتب هازارد، ثم انغلق بقوة مصدراً صوتاً مرتفعاً، مدفوعاً بيد مساعد نافذ الصبر. رفعت آيرين نظرها عن المفكرة التي كانت تقرأها، وقد طارت أوراقها.

التقط الرجل الورقة الطائرة في منتصف الهواء وأعادها إليها. وقال بابتسامة معتذراً:

ـ آسف.. يسأل السيد هازارد إذا كان بالإمكان أن تهتمي بهذا الأمر الأخير فقط؟

قرأتها آيرين وهزت رأسها: ما من مشكلة.

كشر الرجل عن وجهه وهو يفتح الباب مجدداً.

ـ يا إلهي! الطقس حار جداً..! لا أستطيع الانتظار حتى نخرج من هنا، ونعود إلى العالم الحقيقي.

تنهدت آيرين مع إقفال الباب.. ثم أرجعت كرسيها المتحرك إلى الخلف نحو النافذة لتنظر إلى الشارع. إنه على حق.. هذه القرية الهادئة من الزمن ليست بالعالم الحقيقي. لكنها بدأت تحبها، وتحب سحرها.

اعتبرتها ويندي مجنونة.. سانت آغاث غريبة جداً، الطعام والناس والمنازل القديمة، ليست لها.. هكذا قالت بقرف. حتى المقهى المليء بالدخان «le lapin gris» حيث يجتمع فريق العمل آخر النهار حول القهوة والمرطبات، لا يمكن أن يرضيها. وقالت ويندي: كئيبة.. كئيبة.. كئيبة!

بل إنها هادئة.. فكرت آيرين.. هادئة، ساكنة، آمنة لا عمر لها.

لكن، كل هذا سيتغير مع نهاية الأسبوع. سيأتي التغيير لأن غاي سيعود متأخراً هذه الليلة.. ومن يعرف ماذا سيحدث؟

ذكرى أول أمسية مريعة، كانت لا تزال محفورة في ذهنها. كانت غرفة الطعام في «الأوبرج» مقفلة.. وتنهدت آيرين ارتياحاً تظن أنها أنقذت موقفاً.. لكن غاي أصر على الذهاب إلى مقهى «le lapin gris» حيث اجتمع الثلاثة حول طاولة صغيرة، كانت الكراسي قديمة وقريبة من بعضها البعض.

واستمر غاي في الحديث بالرغم من صمت ويندي وصمتها.. يطرح عليها أسئلة عن نفسها، ردت عليها باختصار.. حاولت ويندي بعد فترة إلهاء بسرد قصص وشائعات حول نجم الفيلم المشهور وصديقته.. لكنها في النهاية صمتت.. وأصدرت صوتاً نافذ الصبر معلنة تأخر الوقت وبأن آيرين كما تبدو مرهقة، فلماذا لا يعيدانها إلى الفندق لتتمكن من الراحة؟

كان الطقس بارداً في الخارج بعد حرارة النهار الشديدة.. وارتجفت آيرين. فنظر إليها غاي:

ـ أتحسين بالبرد؟

قبل أن ترد، خلع سترته «الجينز» ووضعها حول كتفيها. لامس خدها يسأل: أفضل الآن؟

فكرت: لا.. ليس أفضل على الإطلاق.. تعبق رائحة السترة برائحته، وانتابتها رغبة مفاجئة أن تدفن وجهها في الياقة الدافئة. قالت بصوت متوتر: أجل.

ابتسم لها:

ـ جيد.. لا نريدك أن تصابي بنزلة صدرية في أول ليلة لك هنا.. أليس كذلك ويندي؟

نظرت إليه ويندي، ثم ردت من بين أسنانها:

ـ لا.. بالطبع لا نريد.

ساروا بصمت إلى «الأوبرج» المظلم.. ما إن وصلوه حتى تقدمت آيرين إلى الأمام، تنادي وهي تصعد السلم:

ـ تصبحان على خير.

حين وصلت الغرفتين، أقفلت الباب ورائها، واستندت إليه.. ساقاها ترتجفان، وكأنها كانت تركض في سباق.

ما الذي يحدث لها؟ إنها تعرف كل ما تحتاج لأن تعرفه عن غاي رينشاردز.. ليس لديه أخلاق أو ضمير.. لكن هذا لم يمنعها من.. من التصرف وكأنها الغبية معه.

كانت لا تزال ترتدي سترته.. وحبست أنفاسها.. ثم فعلت ما كادت تفعله حين ألبسها غاي السترة.. خلعتها، رفعتها إلى وجهها، وأغمضت عينيها.

فتحت عينيها حين سمعت أخيراً وقع أقدام ويندي تصعد السلم، ورمت السترة بعيداً عنها.. تكره غاي.. تلعن نفسها.. تتساءل عما يحدث لها.

رفعت رأسها مع انفتاح الباب.. تصلي لله أن تترك ويندي جنون ما حدث هذه الأمسية يموت موتاً هادئاً.. إنما كانت ابنة عمتها متوتّرة بغضب بالكاد تخفيه..

صاحت بآيرين:

ـ ماذا تحاولين أن تفعلي بحق السماء؟

للحظة فكرت آيرين أن تتظاهر بأنها لا تعرف عما تتكلم عنه.. لكن ليس من منطق في هذا..

ـ أنا لا أحاول فعل شيء.. إنه هو من..

التوى فم نسيبتها:

ـ قلت لك كل شيء عنه آيرين.. وإذا استمريت في تشجيعه..

ـ لأجل الله ويندي.. واجهي الواقع ولا تلوميني على هذا.

رفست ويندي حذاءها العالي الكعبين من قدميها:

ـ أوه.. هيا الآن آيرين.. لست ابنة الأمس! كل ذلك الاحمرار، والنظرات السرية الصغيرة من تحت رموشك..

توقفت عند باب غرفة نومها ونظرت إلى آيرين:

ـ ماذا ستفعلين لو قرر أن يقبل دعوتك؟ غاي رجل وليس ولداً

آيرين.. إنه ليس الصغير جاك أو جوفري أو مهما كان اسمه الذي تحومين حوله.

ـ أنا لا أحوم حول أحد.. ويندي أنت لا تعرفين عما تتكلمين.. بالنسبة لغاي، أنا لست مهتمة به أبداً. وبصراحة لا أستطيع فهم ما تجدينه خلاباً فيه. إنه.. مغرور.. نذل، ماكر.. وأنا..

الدمعت عينا ويندي:

ـ وأنت تريدينه.. كما تفعل أية امرأة أخرى.. ولا يمكنك حتى إنكار هذا.. أتستطيعين؟

احمر وجه آيرين، وضحكت ويندي بخشونة..

ـ إنه لا يعجبني ويندي.. وقلت لك..

ابتسمت ويندي بشكل قبيح:

ـ لا دخل للإعجاب بكل هذا.. نحن نتكلم عن شيء أساسي أكثر.. آسة براءة.. نحن نتحدث عن الرغبة.. أم أن هذا موضوع حديث فج لابنة خالي الصغيرة من ميسوري؟

حدقت الامرأتان ببعضهما، وزفرت آيرين أنفاسها، تقول بصوت منخفض:

ـ كان مجيئي إلى هنا غلطة كبيرة.. وكنت أعرف هذا مسبقاً.

ـ لا أستطيع إلا أن أوافق معك..

ثم فتحت باب غرفة النوم، وصفقته وراءها.

تصاعدت دموع الغضب إلى عيني آيرين، فمسحتها بيدها.. كان المجيء إلى هنا أكثر من غلطة.. كان غباءً.. إنها لا تنتمي إلى هذا المكان.. لقد قال غاي إن هذا عالم غريب.. لكنه أكثر من غريب.. إنه متحفظ، متباعد، مكان يلعب الناس فيه بأشياء لن تستطيع فهمها.

ستوضب أغراضها وحاجياتها وتخرج من هنا غداً في الصباح الباكر..

خلعت ملابسها، وارتدت ثوب نومها، فتحت الصوفا.. ثم اندست بين المفارش الخشنة، واستلقت على ظهرها تحدّق بالسقف المنير بضوء القمر.. غاي مجرد رجل، يتمتع بالعبث مع النساء.. وهي جعلت

اللعبة بكل غبائها سهلة عليه.

الفتاة الصغيرة.. هذا ما دعاها.. فتاة فلاحة صغيرة. ولقد سارعت للقول له إنها ليست صغيرة ولا فلاحة.. صرّت على أسنانها. لا شك أنه لا زال يضحك على حماقتها.. فهو قد تمكن من إثارتها بنظرة، ويعرف هذا.

وها هي الآن تريد الهرب. الفكرة مذلة.. لكن ماذا تستطيع أن تفعل غير هذا؟ لا يستحق بقاءها جهد العناء، أو مواجهته.. أيستحق؟

ربما، لكن هناك أمور أخرى لتفكر بها: كرامتها، وكلفة تذكرة العودة.. إضافة إلى هذا تنتظرها مصاريف جمة في وطنها.

اللعنة على غاي رينشاردز! لن تقع في دين بسببه. شدت آيرين البطانية إلى فوق.. وأغمضت عينيها.. لقد فاض بها أن تكون قطعة من لعبة.. وسيعرف هذا في الغد.

استفاقت بضجيج في رأسها، وألم في ظهرها.. وكانت أشعة الشمس تملأ الغرفة إشراقاً وبهجة..

- صباح الخير.

أجفلها صوت ويندي.. كانت نسيبتها تجلس في إحدى المقاعد، تبتسم وتحمل كوباً من القهوة في يدها الممدودة.

رفعت آيرين خصلة شعر بنية فاتحة اللون عن وجهها، تقول بابتسامة واهنة:

- صباح الخير.. هل هذا لي؟

- إنه عرض للمصالحة.. أخشى أن نكون قد تجاوزنا الحد بالأمس..

أخذت آيرين الكوب منها: ويندي..

- لا.. لا تقولي شيئاً آيرين.. دعيني أتكلم، أرجوك.. أتظنين أن بمقدورك نسيان كل ما قلته لك؟ لست أدري ما الذي دهاني.. أعتقد أنني كنت مرهقة بالعمل، أو شيء ما.

- ويندي.. أرجوك.. أنا..

- سأكون شاكرة جداً لك، لو حاولت ثانية.

نظرت آيرين إليها.. أرادت أن تصدقها ولو قليلاً. أرادت أن تصدق نظرة البراءة على وجهها.. لكن الأمور كانت قد تمادت كثيراً.. ابتسمت بلطف تدفع البطانية عنها.

- لا بأس.. لن أتركك وأنت في ورطة.. لقد اتفقنا، وأنا ألتزم بطرفي من الاتفاق.

مدت يدها تأخذ الروب ثم وقفت تكمل بهدوء:

- فاجأني صديقك.. ولم أكن معتادة على كلاب البحر المفترسة أمثاله.. ثم أنت محقة، إنها غلطتي بطريقة ما في سعيه ورائي. أوه.. أنا لا أعني أنني كنت أشجعه.. لكنه كان يعلم بأنه قادرٌ على إثارتي.. ويبدو أن هذا ما يسليه.. حسناً.. لقد انتهينا من هذا.

نظرت ويندي إليها، وردت بصوت فَقَدَ كل حرارته: حقاً؟

وقع نظر آيرين على سترة غاي فضاقت حنجرتها:

- أجل.. صدقيني.. لا حاجة لأن تقلقي بعد اليوم.

ارتفع حاجبا ويندي، وابتسمت ابتسامة مُماحِية:

- كنت منزعجة آيرين لكنني لم أقلق أبداً. على أي حال، كل هذا أصبح غير عملي.. رحل غاي..

- رحل؟

- حتى آخر الأسبوع على الأقل. حصل شيء ما، ولم أنبش بالاً للتفاصيل.. أظن الأمر له علاقة بفريق السباق، أو سيارته.. مهما كان.. سافر هذا الصباح ولن يعود قبل يوم الجمعة، وفي وقت متأخر من المساء.

استدارت آيرين وأطلقت أنفاسها، وقالت بصوت منخفض: هذا.. جيد.

نظرت ويندي إلى ساعتها، وكشرت:

- يا إلهي.. انظري إلى الوقت.. سيقطع مارتي.. السيد هازارد رأسي!! فلنتحرك.

كانت مكاتب شركة الإنتاج في عربة من الألمنيوم متوقفة في شارع صغير.. دخلتها آيرين مترددة، تتوقع غرفة ضيقة محشورة.. لكن تبين أن

العربة واسعة فيها خزائن للملفات وأثاث مكتبي. كان فيها آلات طابعة وكومبيوتر، كلها تعمل بقوة المولد الكهربائي الصغير في الخارج.

كان مارتي هازارد رجل مكرش، أشعث المظهر، برأس أصلع لمّاع. رفع رأسه من على طاولته مع دخول المرأتين، قال ينظر بطرف عينيه من خلال نظارته قاطعاً القراءة:

- حسن جداً.. النسبة المبسورية الصغيرة أخيراً.

كان هازارد يبتسم.. لكن، في هذا الصباح، كانت جملته كقفاز تحدٍ يُرمى في وجه آبرين. وردت التحدي ببرودة:

- حسن جداً، المنتج الهولبودي الكبير.. أخيراً.

ساد صمت عاصف، ثم صدر عن ويندي صوت شاهق نصفه ضاحك:

- آبرين.. يا إلهي! مارتي.. سيد هازارد! أنا آسفة لا أدري ماذا دهاها.

قاطعتها رنة ضحكة هازارد في نصف جملتها، وقال:

- أعتذر.. فقد توقعت شخصاً مختلفاً جداً.

ابتسمت آبرين: فتاة والتين يكسو شعرها؟

نظر هازارد إلى ويندي: شيء من هذا.

أشار إلى كرسي قرب طاولته:

- أحضري لنا القهوة ويندي. إلا إذا كنت تفضلين شيئاً بارداً؟

- القهوة عظيمة.. لكن ويندي لبست مضطرة..

رد بوقاحة:

- من الأفضل لها أن تفعل شيئاً.. والآن اجلسي آنسة شرابدن، وأخبريني كيف تركت نسيبتك تقنعك بالمجيء لتنقذيها؟

بعد ساعة من هذا، وبعد أن ترجمت حفنة من المذكرات، وبعد أن ردّت على مكالمة غاضبة من عمدة سانت آغاث، ابتسم هازارد وأعلن قبولها في العمل معه، وسيسجل اسمها في عداد العاملين. وأضاف بسرعة:

- مع مصروف الطعام بالطبع.

وافقت آبرين وابتسمت شاكرة.

الآن، وبعد بضعة أيام، وبعد أن استقرت في عملها أصبح بالنسبة لها روتيناً مريحاً.. كانت تستيقظ باكراً - قبل أن تتحرك ويندي - وتقضي ساعة أو ما يزيد في المكتب، ومع منتصف الصباح، تكون على الطريق تقود سيارة «الستيروان» القديمة التي تدبرت المدام استئجارها لها.

كانت السيارة تصرف الوقود بشراهة كبيرة، ولها عادة أن يعلق غبار السرعات فيها.. السيارة الوحيدة المتوفرة للإيجار في سانت آغاث، وتكلف نصف ما يمكن أن تدفعه آبرين لوكالة تأجير السيارات في نيس.

ما إن اعتادت على غرابة أطوارها، حتى ثبت أن السيارة يمكن الاعتماد عليها.. حتى الآن أخذتها إلى نيس، إلى الآثار الرومانية في «سيميز» وإلى مصاطب الصنوبر الجميلة في «كاب دانتيب». غيرت اليوم روتينها قليلاً بطريق عودتها بعد الظهر متأخرة للقيام بعمل ساعة أو يزيد، لأنها ستغيب طوال عطلة الأسبوع.. ستذهب إلى «كان».

كان هذا القرار مفاجئاً.. اتخذته هذا الصباح فقط.

كانت ويندي قد قالت لها وهي تبحث في درج ملابسها عن مشلح:

- غاي عائد الليلة.. ربما سنتناول العشاء في الخارج.. لكن فيما بعد..

كان الصمت المقصود طويلاً.. ثم أكملت:

- لن يزعجك الأمر لو عدنا إلى هنا.. أليس كذلك آبرين؟ لن تتكدري.. أو شيء من هذا؟

قاومت آبرين الغثيان الذي تصاعد إلى حلقها، فقالت:

- لا.. في الواقع.. في الواقع.. لن أكون هنا. أنا ذاهبة إلى «كان» وأفكر.. أفكر.. أن أبقى هناك عطلة الأسبوع.

- يا لها من فكرة رائعة.

وكانت فكرة رائعة، كما تفكر آبرين الآن.. وهي تنظر من النافذة خارجاً إلى الشارع.. ستكون رحلة «كان» كلها مرح.. هكذا يقول الكتاب الدليل.. لكن، لماذا لا تحس بالإثارة لذهابها؟

- آبرين؟

رفعت رأسها . . كان مارتي هازارد يراقبها من الباب المفتوح، فدفعت كرسيها لتقف :

ـ سيد هازارد . . كنت أنهي عملي . . مذكرة فريق الإضاءة . .

ابتسم هازارد :

ـ أجل . . أجل . . أنا واثق أنك اهتممت بكل شيء . . جئت لأقول لك إننا سنلتقط خدعة السيارة . . ألا تريدين أن تشاهديها . . ؟

ـ خدعة السيارة؟

هز رأسه :

ـ صدقيني . . إذا لم تشاهدي مثلها قبلاً، يجب أن تبدأي بهذه . .

ـ وما هي خدعة السيارة؟ أهي مزحة من نوع ما؟

ضحك هازارد :

ـ مزحة . . هذا رائع آيرين . . البوت سوف . .

ناداه صوت من الخارج، فلوح بيده نافذاً صبره وصاح :

ـ حسن جداً . . انتظر قليلاً!

والتفت إليها مجدداً : قدمي لنفسك معروفاً . . وشاهدي هذا . . إذا كانوا قد التقطوه جيداً، يجب أن يكون عظيماً .

تصاعدت خطواته على السلم مغادراً . . وتقدمت آيرين إلى النافذة تنظر إلى الخارج . . كان الشفق يهبط، وتبدو القرية ضبابية بين الظلال . . أمامها تماماً، حيث يضيق الشارع إلى أن يصبح طريقاً فرعية تقود إلى الجبال، احتشدت الجموع الصغيرة وكأنها غابة من الكاميرات وآلات الصوت . . هزت كتفيها بعد لحظة وتقدمت إلى الباب .

ولم لا؟ خدعة السيارة، قد تكون مثيرة للاهتمام . . هذا الفيلم، أو القليل الذي عرفته عنه، يدور حول رجل فرنسي، سائق سباق (للجائزة الكبرى)، إنها قصة حياته، مروية بذكريات مكررة، من قرية مولده الصغيرة إلى انتصاراته العالمية على حلبات السباق .

استطاعت وهي تقف على أطراف أصابعها، عند أطراف المجموعة رؤية المشهد كله . . كان الظلام قد أصبح أكثر اسوداداً الآن، مستصور الكاميرات المشهد تحت الأنوار الكاشفة . . كانت الكاميرات المختلفة

مركزة بحيث تلتقط الطريق من زوايا مختلفة . . ثم رأت صهريجاً ضخماً متوقفاً في مكانٍ قريبٍ .

وصاح صوت :

ـ بللها مجدداً! أريدها أن تبدو وكأنها غارقة في المطر . .

تحرك الصهريج ثانية وتدفق الماء على الطريق . . وأحست آيرين بجفافٍ في حلقها . . وقفزت صورة إلى ذهنها، يلمع الماء بلون أسودٍ فوق طريقٍ مبللٍ . .

صاح صوت آخر : الجميع . . مستعد؟

ظهر رجل من بين فريق الماكياج والتنانين قائلاً : أجل .

وسار ببطء نحو كتف الطريق .

ـ مارك . . هل البوت مستعد؟

رفع شخص يضع سماعات على رأسه، ويحمل «راديو» صغيراً يده يلوّحها .

ـ حسن جداً . . قل له إننا سنباشر بالتصوير . . وقل له أن يضغط المكابح عند وصوله إلى المنعطف . . أريد احتراق المطاط يا رجل . . بقدر ما يستطيع . .

تصاعدت لحظات متوترة . . ثم صاح صوت :

ـ هدوء في الموقع .

وساد الصمت ثم رعق أحدهم : أكشن!

سمع الجميع من بعيد هدير محرك ينذر بالشر . . كانت السيارة مجرد بقعة سوداء في البداية، تسرع نحو الكاميرات، تتلوى من جانب إلى آخر وهي تقترب، انزلقت حول المنحنى الأول، وانقلبت إلى أن كادت تقف على دولابين اثنين . . وبدا أن الحشد كله قد سحب نفساً واحداً .

انزلق تفكير آيرين مع انزلاق السيارة إلى مشهد في الماضي وإلى طريق مبلل مختلف . . وإلى سيارة تسافر بسرعة . . أكثر مما يجب . وتنزلق وهي تصل إلى الزاوية . . جفت حنجرتها ونظرت نحو الممثل السائر ببطء على كتف الطريق ورأسه إلى الأسفل . يداه مدسوستان في جيبيه . . ثم نقلت نظرها إلى السيارة المنسابقة بجنون على الطريق .

لا . . لن يفعل أحد هذا متعمداً . لن يفعله أحد . .

ـ جوفري . . !

لكن جاءت صيحتها متأخرة، ضاعت في صوت دواسة الإطارات واستمرت السيارة في انزلاقها فوق الطريق المبللة . ثم صدمت الرجل السائر، وارتفع في الهواء، يتقلب ويتقلب ويتقلب . .

كانت تنتحب بصوت منخفض حين أطبقت حولها ذراعان قويتان . وهمس لها صوت أجش :

ـ لا بأس عليك . . لا بأس .

ـ ساعده . . أرجوك ساعده . . إنه يموت .

ـ آيرين . . خففي عنك طفلتي . . كل شيء على ما يرام أعدك .

امتدت الذراعان حولها مع بداية ارتجافها، ثم رفعتاها عن قدميها همست :

ـ أرجوك . . أوه . . أرجوك . . لا تدعه يموت!

ـ لن يموت أحدٌ . . المنظر ليس حقيقياً آيرين . . إنها مجرد خدعة خدعة . . هذه خدعة . دارت الدنيا حولها والرجل يحملها بعيداً عن رائحة المطاط المحروق .

توقف كوكب الأرض عن الدوران . . جوفري لم يمت مرة أخرى . ثم يمت أحد . . وما رأته كان خدعة خيال سينمائية .

لكن الذراعين اللتين تحملانها، وهذا القلب الخافق بقوة وثبات تحت أذنها، هذا الصوت الهامس بالطمأنينة ليس وهماً . . إنه حقيقة . . وكل هذا هو لغاي ريتشاردز الذي أوصلتها خطواته الواسعة السريعة بعيداً عن الموقع المزدحم .

تنفست آيرين بارتجاف :

ـ أنا . . بخير الآن . بإمكانك أن تنزلني

امتدت ذراعاه حولها : بعد دقيقة .

ـ غاي أرجوك . . أنزلني . أحس وكأنني بلهاء

ـ لماذا؟ لأنك لم تميزي ما بين الحقيقة والخدعة . . ؟

ثم ضحك بصوت ناعم :

ـ سيكون البوت سعيداً لسماع هذا .

ـ إنها خدعة . . هذا ما قاله مارتي . . لكنها لم تكن هكذا . .

ـ ها قد وصلنا .

أنزلها غاي ببطء وأدركت أنه أوصلها إلى سيارته . بقيت ذراعه حولها، وهو يفتح لها الباب .

ـ هيا ادخلي .

حين ترددت ابتسم :

ـ أعدك . . دون أية خدعة . . مجرد رحلة صغيرة لطيفة إلى مكان جميل تستطيعين فيه استعادة رباطة جأشك . . أوكي؟

ـ شكراً لك . . لكن . .

ـ لكن ماذا؟

نظرت إليه . . لكن . . أنا أكرهك، ولن أدعك تخدعني أكثر من هذا .

ثم تخرج منها الكلمات . . وكان غاي يراقبها بنصف ابتسامة . . وفكرت : اشتقت إليك . . أرسل هذا الوعي موجة من الدوار اجتاحت دماغها . . فتح غاي الباب :

ـ هيا . . ادخلي .

ـ لا . . لا أستطيع . . أنا . .

تناهت إليهما صيحة استحسان وتحية إشراق في الهواء، المنعش ورفع غاي نظره قائلاً :

ـ إنهم يحتفلون . . نجحت الخدعة . . والليلة ليلة الجمعة . وهذا يعني أن الفريق سيتوقف عن العمل، ويقضي الساعات القادمة في الحديث عن روعة الحادثة . أتريدين القيام بهذا؟

هزت برأسها :

ـ كنت سأذهب إلى «كان» . . لكن، ليس الآن .

تركته يُدخلها إلى السيارة، وأقفل الباب وراءها ثم استدار إلى مقعد السائق، وصعد :

ـ سنتناول المرطبات، نسترخي، نتناول العشاء مبكراً، ثم أعيدك بعد

ساعة . . لا بأس في هذا؟

كانت تعرف أن هناك عشرات الأسباب لقول «لا» لكن في تلك اللحظة بالذات، لم يبد أي منها مهماً . . اعتبر غاي صمتها بمثابة موافقة. وأدار المفتاح، وداس على دواسة السرعة، وقفزت السيارة مبتعدة.

أخذت آبرين نفساً عميقاً وهي تتذكر تحضيرات تسييتها لهذه الأمسية:

ـ غاي . . وبندي تتوقع وصولك، وتنتظره بفارغ الصبر . .

نظر إليها:

ـ صحيح؟ وما الذي حدث لك خلال التصوير؟

هزت برأسها، لا تريد الحديث عن هذا . . ليس وصورة الحادثة التي قتلت جوفري لا زالت حية في ذاكرتها.

ـ أعتقد أنني انجرفت . . بدا لي كل شيء حقيقياً . . هل يدعون مثل هذا الأمر خدعة؟

لمعت أسنان غاي في عتمة المساء المتزايدة:

ـ جنون . . أليس كذلك؟

خفف سرعة سيارته، وأدارها في مفترق للطرق. وتوقف في فسحة أمام منزل مضاء.

أطفأ غاي المحرك . . وران صمت حولهما لا يقطعه سوى صوت صرير الصراصير البرّية . . سألت بعد لحظات: ما هذا المكان؟

ـ إنه نُزل . . نُزل جيد جداً . . تناولت العشاء فيه عدة مرات . . هل أنت واثقة أنك على ما يرام الآن؟

هزت برأسها:

ـ أجل . . أنا بخير . . أنا أحس فقط بأنني مجرد بلهاء.

هز برأسه، يقول بنعومة مبتسماً:

ـ لا . . لست هكذا.

امتدت يده لترفع خصلة شعرٍ عن وجهها، ثم لامس خدها:

ـ اشتقت إليكِ.

انقلب قلبها رأساً على عقب . . وقالت بسرعة:

ـ لا تكن سخيفاً! أنا لم ألحظ حتى فترة غيابك . .

تصاعد صوت الجلد من المقعد تحته وهو يقترب منها: آبرين.

كان صوته متحفظاً، أرسل رجفة على جلدها. ابتلعت ريقها بصعوبة وقالت:

ـ غاي . . لقد قلت . . قلت شيئاً عن شراب وعشاء . .

ـ آبرين، انظري إليّ

ردت بصوتٍ هامس:

ـ لا . . غيّرت رأيي . . أريد العودة إلى سانت آغاث.

أطبقت يده على ذقنها ببطء، ورفع وجهها إليه . . فهمست مجدداً:

ـ أرجوك . . أعدني إلى المنزل.

ـ تعرفين أن هذا ليس ما تريدينه

أوه . . يا الله . . ماذا يحدث لها؟ إنها تعرف أي نوع من الرجال هو . . وتعرف أن هذا كله لعبة بالنسبة له . . وأصبح الجو بينهما الآن مشحوناً . . تماماً كما كان في ذلك الوقت حين جلسا قريباً من بعضهما، يوم أحست بأنها وغاي ريتشاردز الشخصين الوحيدين في العالم.

رفرفت فشعريرة إنذار على ظهرها . . وهمست: لا . .

ـ لماذا تقول النساء «لا» في وقت يعنين «نعم»

زادت القشعريرة ثقلاً:

ـ أرجوك غاي . . هذا خطأ . . لا أريدك أن . .

شدها إليه، هامساً بدوره:

ـ تعالي . . هكذا . . استرخي . . فقط . .

ووضع رأسها على كتفه بضمها بقوة، وأكمل:

ـ آبرين . . فكرت بهذا طوال الأسبوع . . ضمك إليّ . .

احتجّت مرة أخرى:

ـ لا . . لا تفعل هذا . . غاي أرجوك . .

أغمضت عينيها مع تحرك يده على شعرها . . وتراقصت الأنوار خلف جفنيها المغمضتين . . وفكرت:

ـ غاي . . غاي . .

تمتم: نعم

أدركت أنها بطريقة ما تلفظت باسمه، فارتفعت يدها إلى صدره متلهفة وهمست باسمه مرة أخرى وقلبها يكاد يتوقف..

فجأة، تمتم بشيء.. أمسك بيديه القويتين ذراعيها بقوة، وسمعت صوت تنفسه الحاد، لم أبعدها عنه..!

فتحت عينيها ببطء وهمست مجدداً: غاي؟

لم تستطع أن ترى في النور الخافت المنبعث من النُزل سوى عينيه، وعضلة تتحرك على خده.

صرخ بصوت أجش: أخرجي من السيارة..!

سحبت أنفاسها بخشونة: ماذا؟

التوى وجهه غضباً:

ـ أخرجي.. أسمعت هذا آبرين؟ قلت..

مد يده وفتح الباب لها.. أرعبها الغضب في صوته، والنظرة في عينيه.. هل يفعل هذا لمجرد إذلالها؟.. لا.. مستحيل.. لا.

ـ أخرجي!

تعثرت وهي تخرج من الباب، وكادت تقع على ركبتيها من عجلتها.. ونظر إليها غاي بحدة:

ـ هناك هاتف في الداخل.. اتصلي بهازارد، واطلبي منه إرسال سيارة لك.. أتفهمين؟

هزت رأسها وهي تتراجع إلى الوراء ببطء.. وتهمس:

ـ لا.. لست أفهم.. لا يمكن أن تكون قد فعلت هذا بي فقط.. لمجرد..

ضحك بصوت رهيب جاف، أيقنت آبرين أنها ستذكره لما تبقى من حياتها.. وقال:

ـ أنت محقة.. أنت لا تفهمين.. لا تفهمين شيئاً أبداً.. وهذه مشكلتك.

دفع الباب بقفله، وتصاعد صوته بقوة، ثم هدر المحرك، وانطلقت السيارة على الطريق

لكن ما حدث بعد هذا حدث بسرعة هائلة.. وصلت السيارة إلى ما

بعد النُزل بقليل، وظهرت في الوقت نفسه، «جرافة» تخرج إلى الطريق أمام أنوار السيارة، وسمعت صوت الإطارات المربع يصرّ بيأس فوق الطريق لينصاعد صداه في الليل الساكن، وبدأت أنوار السيارة تدور بطريقة مخيفة وهي تنحني بحدة لتهوي نحو المنحدر الذي يحاذي الطريق الضيقة.

بدت السيارة للحظات توقف القلوب معلقة على الحافة تتأرجح أنوارها وكأنها تتوسل بلهفة.. ثم، هوت ببطء واختفت في الظلام.

٤ ـ توقف يا قدر!

ابتلعت آيرين آخر قطرة قهوة في كوبها. ونظرت بسرعة إلى ويندي المكورة على الصوفا.

لكن نسيبتها استمرت في النوم دون انزعاج، وتنهدت آيرين ارتياحاً. فآخر شيء تريده الآن هو أن تضطر للتعامل مع هستيرية ويندي مجدداً.

كانت قد صاحت بذعر بعد أن أعطت ممرضة الطوارىء معلومات عن آخر حالة لغاي.

ـ إنهم يعطونه دماً؟ لا أريد سماع هذا.. سيغمى عليّ. أعرف أنه سيغمى عليّ!

وقفت ويندي حين ظهر المعالج ليشرح أن الكسر في كاحله الأيمن يحتاج إلى صفيحة فولاذية وبراغي مثبتة، وأخفضت رأسها إلى ركبتيها.. وقالت هامسة:

ـ أرجوك.. وفّر عليّ التفاصيل.

لحقت آيرين بالطبيب إلى الردهة متشوقة لسماع «التفاصيل»، فهي خير دليل على بقاء غاي حياً يرزق. وأنه لم يمت كما سبق أن مات جوفري. كانت الحادثة قد أعادت لها كل ذكريات ذلك المساء الرهيب.

كان من المفترض أن تقابل جوفري عند السادسة.. لكنها تأخرت.. وما من سبب معقول.. تأخرت لأنها توقفت لتجري حواراً مع تلامذتها بعد اجتماع النادي الفرنسي، بدلاً من أن تسرع لتحافظ على موعدها.. ولهذا كان جوفري واقفاً على الرصيف خارج المطعم حين جاءت سيارة

من المنعطف مسرعة فوق الطريق المبللة مطراً..

كان جوفري ميتاً حين وصلت.. لكن غاي، والحمد لله، لا يزال حياً.. لم يكن لديها فكرة كيف وصلت إليه.. كانت في دقيقة على الطريق، وفي الأخرى على المنحدر الحاد، تحتضن غاي بين ذراعيها، تتوسل إليه أن لا يموت.. مع أنها تعرف أنه لا يسمعها.

كان غاي غائباً عن الوعي.. تنسدل رموشه السوداء على خديه ويتدفق الدم الأحمر من صدغه، قائماً أمام شحوب بشرته غير الطبيعية. كانت قدمه مطوية في زاوية مستحيلة، حتى أنها أحست بالغثيان لرؤيتها.

لكن، لم يكن أي من هذا أكثر أهمية لها من ارتفاع وانخفاض صدره المنتظم.. إنه حي.. حي! وضحكت من خلال دموعها وأحنت رأسها إلى رأسه، تهمس بفرحها له، وكأنه يستطيع أن يسمع!

ورفضت تسليمه إلى رجال الإسعاف. وقال أحدهم، بلهجة فرنسية ثقيلة:

ـ يمكنك الركوب معه.

وأشار إليها لتتسلق مؤخرة السيارة ففعلت.. وكان على ممرضات الطوارىء أن ينتزعنها من جانب غاي عند وصولهم إلى المستشفى.

قالت الممرضة تمسك بكتفي آيرين:

ـ يجب أن نتركي الأطباء يقومون بعملهم.

نظرت آيرين إليها تقول بشراسة: يجب أن يعيش.. أتفهمين؟

ـ سآتيك بالقهوة إلى غرفة الانتظار.. مدموزيل.. ربما تودين إخبار أحد عن الحادثة؟

نظرت إليها آيرين بغباء:

ـ أنا.. لست أدري.. لكن، هذا ما يجب عليّ فعله..

وفكرت بويندي التي وصلت بسرعة:

ـ آيرين، كيف حاله؟

ـ إنه حي.. هذا كل ما أعرفه.. لقد رأيت كل ما حدث.

وانفجرت بالبكاء، ونظرت ويندي إليها بدهشة: شاهدت كل شيء؟

أحنت آيرين رأسها:

ـ لاحظ غاي وجودي في موقع التصوير، حين كنت أراقب لقطة الحادثة «الخدعة» بعد الظهر.. وتأثرت للمشهد وتكدرت، فقد ذكرني..

صاحت ويندي تقاطعها:

ـ تكلمي في صلب الموضوع.

ـ قادني إلى «نويل» وأوقف السيارة خارج الأوبرج.. وتحدثنا.. ثم.. ثم..

ـ ثم ماذا؟

ارتفع وجه آيرين ببطء نحو المرأة الأخرى.. وكانت تراقبها بعينين باردتين ميتتين.

يا إلهي! ماذا تقول لها؟ لن تستطيع إخبارها عما حدث، وكيف أن غاي حاول مغازلتها، وأنها ذابت بين ذراعيه، وأن إذعانها له، أغضبه إلى درجة أنه قاد سيارته بغضب و.. و..

ـ حسناً.. أنا أنتظر آيرين.. ماذا حدث؟

تنفست آيرين بعمق:

ـ قررتُ أنني أريد العودة إلى سانت آغاث، وقال غاي إنه سيستمر ليتابع طريقه.. فخرجت من السيارة و...

لكن ويندي كانت قد توقفت عن الإصغاء، وقالت:

ـ تلوث فستانك بالدم.. لماذا لم تطلبي مني على الأقل أن آتيك بغيار ملابس؟

نظرت آيرين إلى نفسها بدهشة: أنا.. لم أدرك..

ارتجفت ويندي:

ـ يصيبني منظر الدم بالغثيان.

وهذا فعلاً ما حدث لها عند ذكر الجراحة والعظام المكسورة.. وأحست آيرين بالراحة حين تكورت ويندي أخيراً في زاوية الصوفا بغرفة الانتظار، وقالت تتثاءب: أيقظيني لمعرفة كل جديد. واستغرقت في نوم عميق.

أخذت آيرين الآن، وبعد ساعات، تراقب وجه ويندي الهادىء، وتتساءل كيف تستطيع النوم بينما غاي..

تقدمت بسرعة إلى النافذة، ووقفت تنظر إلى الخارج.. تتأمل الفجر الذي بدأ لتوه بالبزوغ فوق نيس.. لا تستطيع أن ترى سوى رجل واحد مع امرأته يسيران ببطء بملابس السهرة، ذراعاً بذراع.. وكأنهما يتمنيان أن لا تنتهي ساعات الليل عندهما.

لكن هذا مستحيل.. فالوقت كمجرى النهر، لا مجال لإيقاف تدفقه. أوه.. لو أن المرء يستطيع إيقافه! كم سيكون رائعاً لو أنها تستطيع العودة إلى بعد ظهر الأمس، وأن تمحو كل شيء أوصل غاي إلى تلك اللحظة الرهيبة.

ـ مدموزيل شريدان؟

استدارت نحو الباب، لترى رجلاً يبتسم بتعب لها، فتقدمت إليه: أجل؟

ـ أنا دكتور موريت.. أنا.. كيف تقولين هذا.. جراح تجبير العظام.. أليس كذلك؟

ـ أجل..

تنحنح الطبيب:

ـ سيد رينشاردز رجل قوي جداً مدموزيل.. إنه في صحة ممتازة.

ـ صحيح؟

ماذا يقول؟ غاي مستلق في مكان ما من هذا المستشفى ساقه مكسورة، ينزف من وجهه.. أبتسم الطبيب بلطف:

ـ ما أريد قوله، أن من الجيد أن يكون في هذه الحالة.. تفهمين ما أعني؟ فهذا يعطيه القوة التي يحتاجها الآن.

تنفست بارتجاف:

ـ دكتور موريت.. أرجوك.. كيف حاله؟ هل هو.. هل..؟

سمعت صوت الصوفا تتحرك مع وقوف ويندي عنها التي قالت بنفاذ صبر، وصوت ناعس:

ـ ما تحاول أن تسأله، هو ما إذا كان غاي سليماً.. حسناً.. هل هو سالم؟

ـ كما تعرفان، ساقه مكسورة عند الكاحل، وتمزق رباط ساقه

الأوسط ولديه إصابة قوية في ركبته.

ارتجف صوت آيرين:

ـ لكنه سيكون بخير؟

ـ لقد مرّ بالأسوأ حتى الآن.. الجراحة وخسارة الدم..

ـ هذا كثير.. فإصابة الركبة صعبة العلاج، أما الكاحل..

هز رأسه:

ـ هناك الكثير من العظام المحطمة.. المفصل..

رفعت ويندي يدها تقاطعه:

ـ لكنك أصلحت كل هذا.. صحيح؟ وماذا عن وجهه؟ تقول نسيبتي إن هناك إصابة.. فهل هي سيئة؟

ـ لقد لزمها بعض القطب.

سألت ويندي بسرعة:

ـ وكيف يبدو؟ هل يحتاج إلى جراحة تجميل؟

ارتفع حاجبا الطبيب.

ـ لا.. لا أظن هذا.. قد يبقى هناك أثر، لكنه ليس بالخطير.

صمت ينقل نظره من امرأة إلى أخرى.. وبللت آيرين شفتيها:

ـ إذن.. إذن.. سيكون على ما يرام؟

نظر موريت إليها:

ـ لن تهدد الإصابة حياته، آنستي..

جاءت كلماته هادئة فانهمرت دموع السعادة من عينيها.. وهمست:

شكراً لك.

ـ لقد قمنا بما نستطيع أن نفعله مدموزيل.. وهو كل ما يستطيع العلم أن يفعله..

تقدمت ويندي إلى الأمام، تتجاوز آيرين بنفاذ صبر:

ـ أريد أن أراه.. أين هو؟

ـ إنه لا يزال في غرفة العناية.. وسيبقى فيها لساعة أو ما يزيد، إذا رغبت في الانتظار..

قالت آيرين بسرعة: بالطبع سأنتظر.

رفعت ويندي كمها لتنظر إلى ساعتها:

ـ لن أستطيع الانتظار آيرين.. إنهم سيصورون مشهداً مهماً في الثامنة تماماً.

ـ ألا ترغبين بأن تكوني حين يستيقظ؟

هزت كتفيها:

ـ طبعاً.. لكن الطبيب قال لتوه إنه بخير.. أليس كذلك دكتور؟ ألم تقل إنه سيكون على ما يرام؟

نقل الجراح ثقله من قدم إلى أخرى: أجل.

ـ لن يتشوه وجهه أو أي شيء آخر.. صحيح؟ إذن.. ماذا يقال غير هذا؟ سيكون غاي بخير.. وهذه أخبار رائعة وسيرغب مارتي بسماع هذا مني.

قالت آيرين بنعومة:

ـ قد يرغب غاي أن يرى حين يستفيق وجوهاً مألوفة.

ـ غاي محترف.. ويعرف أن العمل يجب أن يستمر.. وأنا بالكاد سأصل في الوقت المحدد، لو غادرت الآن. فماذا ستفعلين آيرين؟ أتريدين أن أوصلك أم..

هزت آيرين رأسها:

ـ اذهبي أنت.. سأبقى هنا قليلاً.

ابتسمت ويندي بإشفاق:

ـ بكل تأكيد.. افعلي هذا.. سأعود لاحقاً بعد انتهاء التصوير.

انتظرت آيرين إلى أن ابتعد وقع كعبي نسيبتها عن مسمعها، ثم استدارت إلى الدكتور موريت.

ـ أيمكن أن تكلف أحداً ليعلمني متى سينزلونه من غرفة العناية؟

أمسك الدكتور بمرفقها:

ـ اسمحي لي بأن آخذك إلى غرفته مدموزيل شريدان، فسيكون انتظارك هناك أكثر راحة.. وأنا واثق من أن صديقك سيرغب في رؤية وجه مألوف.

هزت آيرين برأسها: لا.. لا أظنه سيرغب في رؤيتي دكتور..

ـ بكل تأكيد سيرغب في رؤية الشابة التي تعلقت به.. وبعناد.. إلى أن أوصلته المستشفى. مدموزيل، الاستفاقة بعد الغيبوبة أمر صعب، وخاصة في مكان غريب، دون رؤية وجه يعرفه، أو سماع لغة ليست لغته.. كل هذا صعب الاحتمال.. أليس كذلك؟

هزت برأسها على مضض.

ـ أجل.. أعتقد هذا.

ـ جيد.. تعالي.. سأرشدك إلى غرفة صديقك.

أشارت لهجة الطبيب إلى وجوب انتهاء المناقشة.. سمحت له بتنهيدة استسلام أن يقودها في الممر.

* * *

ـ ابتعدْ.. إلى الجانب.. اللعنة عليك! أنا أفقد السيطرة.. لا أستطيع.

أيقظ ارتفاع الصوت الأجش الخائف آيرين على الفور.. كانت الغرفة كلها ظلال وبنير وجه غاي مصباح خفيف واحد.

وقعت عند وقوفها المجلة التي حاولت عبثاً قراءتها منذ ساعات، عن ركبتيها.. لقد عاد إلى هدوئه الآن.. ونام. لكنها تعرف أنه لا زال يحلم. كانت تلاحظ تحرك عينيه تحت جفنيه المغمضين، وتعلو جبهته مسحة عرق خفيفة.

نظرت إلى الساعة المعلقة على الجدار قرب الباب.. كيف يمكن أن تكون قد نامت طوال هذا الوقت؟ لقد مرت ساعات منذ أدخل غاي إلى الغرفة، وجهه شاحب، ساقه ملفوفة بالرباطات وهمست إحدى الممرضات بالفرنسية:

ـ إنه نائم.. وسيمر وقت طويل قبل أن يستيقظ تماماً.

هزت آيرين رأسها، ثم جلست تنتظر.. ناوه غاي بصوت منخفض بضع مرات، ففتح مرة عينيه بحدة، ليغمضهما ثانية، دون أن يرى شيئاً.. مر الصباح وكذلك بعد الظهر، ووجدت نفسها تنعس، تكبو، وأخيراً..

ـ آيرين؟

قفز قلبها من مكانه.. عينا غاي كانتا مفتوحتين ومركزتين على وجهها. تنفست بعمق:

ـ غاي.. كيف تشعر؟

ـ وكأن شاحنة سارت فوقي.

والتوى فمه، فأدركت أنه يحاول أن يبتسم، لكن الابتسامة تحولت إلى تكشيرة ألم، ثم همس من بين أسنانه:

ـ نكتة رديئة.

ـ هل أنت متألم؟ سأستدعي الممرضة.. ترك الطبيب الأوامر..

كشر مرة أخرى:

ـ لا.. لا تستدعي الممرضة.. ليس بعد.. أحس بفمي محشواً بالقطن.

ـ أجل.. قيل لي بأنك ستشعر بالعطش الشديد.. هاك.. خذ قليلاً من الماء.. دعني أساعدك.

وضعت ذراعها بلطفٍ حول كتفيه، وأسندته إلى أن شرب.. وعاد إلى الوسائد.

ـ شكراً.

ـ كانت ويندي هنا معظم الليل.. أرادت أن أقول لك..

ـ أحاول عدّ القطع.. قطعي كلها موجودة هنا.. صحيح؟

ـ أجل.. كسرت كاحلك، وأصبت بركبتك..

أغمض عينيه متعباً ووقفت آيرين تراقبه، ثم رفعت شعرها إلى الوراء بحذر، وبدأت تغادر الغرفة بهدوء..

ـ أين أنت ذاهبة؟

كان صوته منخفضاً وناعماً.. لكنه لا يخلو من الرهبة والسلطة، فابتسمت واستدارت نحوه.

ـ لأقول للممرضة إنك استفقت.. سترغب أن..

ـ الرجل في التراكتور.. هل هو بخير؟

ـ أجل، لقد نجا دون إصابات.

ـ أجل.. هكذا الأمر دائماً.. أحدهم ينجو والآخر يدفع الثمن.. يا

إلهي . .

ـ لم تكن غلطتك . . التراكتور .

نظر إليها، عيناه مسودتان لا قرار لهما . . وقال بصراحة :

ـ أفلت الزمام مني، بكل ما تعنيه الكلمة . . ماذا عنك؟

ـ عني؟

ـ أجل . . عنك أنت .

ـ لم أكن . .

ـ لا بد أنك شاهدت ما حدث؟

مررت لسانها على شفتيها :

ـ كان الأمر . . مثيراً . . للاضطراب . . أعني . . أعني . .

ما تعنيه هو أنها كادت تميت نفسها ساعة رأته ممدداً هناك . . لكن كيف تقول له هذا؟

طقطق السرير وهو يحاول نقل ثقله . . ثم قال من بين أسنانه :

ـ قدمي لي معروفاً . . استدعي الممرضة . . وقولي لها إنني أستطيع الاستمتاع بأي نوع من المهدئات .

مرت الأيام ببطء، كانت ويندي تتردد خلالها لفترات بسيطة . . ورتبت آيرين مواعيد عملها كي تتمكن من قضاء معظم ساعات يومها في المستشفى . . لكن غاي لم يكن يعرف هذا . . بالطبع . . لأنها قد أقنعته بأنه ليس لديها عمل كثير في الموقع هناك .

قال لها بصراحة :

ـ هكذا ظننت، لن تحتاج ويندي إليك بقدر ما أحتاجك أنا .

ـ فرنسيتي أفضل من فرنسيتك بكثير . . كيف كنت ستشرح للممرضة حتى الآن بأنك تكره «الكاستردة» لو لم أكن هنا .

ارتسم شبح الابتسامة على وجهه .

ـ افعلي ما شئت . . أنت فتاة ناضجة .

رفض غاي أن يستقبل المصورين والمراسلين في غرفة الانتظار . . لكن ويندي كانت هناك وأصرت أن هذا ضروري . . فوافق أخيراً . . هكذا ظهرت صورته في الصحف باليوم التالي مع قصة قصيرة عن الحادثة، وعن

نيته في العودة إلى حلبة السباق في غضون شهرين . وكانت صورة ويندي معه . . تمكنت بطريقة ما من دس نفسها أمام الكاميرات، في كل مرة كانت تلتقط له صورة .

خف ألم غاي، لكن توتره لم يخفّ . . كان متعباً من الاستلقاء دون حركة، مرهقاً من اهتمام الناس به . . ومن تناول الأدوية . وقال متذمراً :

ـ أنا من يقرر متى آخذ الحقن لتخفيف الألم .

آمنت ويندي أن هذه رجولة . . وقالت وهي ترسم شفتيها بشيء من أحمر الشفاه، قبل أن تدخل غرفته :

ـ هذا ما أسميه كبرياء رجل .

رد عليها الدكتور موريت وهو يقطب حاجبيه :

ـ ليس من المقصود دائماً أن يكون المرء متكبراً . كما تقولين . . للحياة متطلباتها . وأشياء كثيرة تحدث . يجب تشجيع صديقك على اعتبار نفسه من البشر . . وليس سوبرمان .

مرت قشعريرة إدراك على بشرة آيرين . . وارتفعت عيناها إلى ويندي، التي كشرت ورفعت عينيها إلى السقف . وهمست بعد ابتعاد الجرّاح :

ـ لن يتكلم الأجانب مثلنا أبداً . .

لم تكن آيرين تصغي إليها . . وبدأت تقول :

ـ سأتكلم مع الطبيب بالأمر . .

لكن، فاتها أن ترى الطبيب في اليومين التاليين، فقد تغيرت مواعيده كما قالت الممرضة المسؤولة . . وأصبح يقوم بجولته باكراً الآن . . فهل هناك مشكلة؟

ترددت آيرين . . ليس هناك مشكلة، وهزت رأسها نفياً . . غاي أصبح يجلس في سريره الآن . . ولولا المعدات الثابتة على ساقه، لبدا وكأن شيئاً لم يكن .

كان سلوكه يتغير يوماً فيوم ويزداد تجهماً . . كان الاستثناء الوحيد يوم ظَهَرَ فريق من الرجال يلبسون سترات من الساتان اللماعة تحمل اسمه، دخلوا غرفته وأيقنت فوراً أنهم فريق عمله . . بعد أن رحلوا، لم يقل الكثير لما تبقى من بعد الظهر . . وكان طبعه سيئاً . جاءت ويندي

لزيارة خاطفة كعادتها وسرعان ما رحلت بسرعة أكثر من المعتاد، تقول هامسة بحدة وهي تخرج:

- إنه لا يطاق!

حضرت آيرين نفسها لكل طارىء وهي تفتح الباب.. كان قد سُمِحَ لغاي بالجلوس في كرسي قرب النافذة لوقت قصير كل صباح وبعد الظهر، فوجدته هناك وقالت له بإشراق:

- مرحباً.. حصلت على نسخة من نيويورك تايمس للأحد الماضي وظننت أنك..

استدار نحوها بوجه مختنق:

- لا تهمني الصحف والمجلات أبداً.. أريد فقط معرفة موعد خروجي من هنا.

ردت بحبور مصطنع: وصباح الخير لك أيضاً!

- أنا لست في مزاج للمرح واللعب آيرين.. أنا متعبٌ جداً من طرح الأسئلة دون الحصول على الرد.

تلاشت ابتسامتها: وهل طرحت أسئلة؟

- أجل.. موريت، الممرضات.. كل ما أفعله هو طرح الأسئلة. لكن يضع الجميع على وجهه تلك النظرة الفارغة، ويرفع نظره إلى السقف أو ينظر إلى الأرض.

- ربما لا يفهمونك.

- بالضبط.. ولهذا أريدك أن تبحثي لي عن موريت وتتحدثي معه.

أحست آيرين لسبب ما وكأن الأرض تتحرك من تحتها.. قالت تلتفت لتشغل نفسها بتحضير وسادته:

- لماذا لا تصبر يوماً أو يومين؟ لا تستطيع استعجال الأمور.. وتعرف هذا.. أنا واثقة أنك سرعان ما تقف وتخرج.. وإلى ذلك الوقت..

قاطعها بصوت منخفض:

- آيرين.. انظري إليّ.. أرجوك، ابحثي عن موريت.. تكلمي معه.. أنا فقط.. لدي إحساس.. أن هناك خطب ما.

- لا تكن سخيفاً.. لقد كسرت..

ضرب بيده على ذراع مقعده:

- اللعنة! أعرف ما حصل لي.. لقد كسرت عظاماً من قبل.. لكنني لم أضطر للنوم وكأنني.. كأنني كيس بطاطا!

ردت بنعومة: حسن جداً.. ماذا تريدني أن أفعل؟

ألقى رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه:

- تكلمي مع موريت.. اسأليه ما الذي يجري.. قولي له.. قولي له إنني سأجن.. قولي له إنني يجب أن أخرج من هنا..

تلاشى صوته.. هزت آيرين بعد لحظة رأسها:

- سأقوم بأفضل ما بوسعي.

لكن أفضل ما بوسعها لم يكن جيداً بما يكفي.. فقد تجاهل موريت سؤالها، لكنه وافق على أن يقضي غاي جزءاً من يومه في كرسي متحرك، وأكمل:

- أما بالنسبة للباقي، قولي للسيد رينشاردز إنني سأراه في الغد.

ابتسمت آيرين وهي تحمل إلى غاي الخبر. وابتسمت بينما كان ينقله الممرض إلى الكرسي المتحرك. كانت الابتسامة زائفة، وكل ما كانت تفكر به وهي تدفع كرسيه نحو الحديقة الزجاجية بأنه على حق..

ثمة غلط في الموضوع، وبشكل رهيب..!

◇◇◇

دفعت ويندي باب غرفة غاي في المستشفى وابتسمت متوترة:

- ها أنت هنا آيرين.. أمضيت الصباح كله أبحث عنك.. لدي مجموعة كبيرة من الرسائل تحتاج إلى ترجمة.

واستدارت إلى غاي بابتسامة مخنوقة:

- مرحباً حبيبي.. كيف تشعر اليوم؟

- متعب من تلقي النشرات الطبية.. أخبريني كيف يجري العمل في الموقع؟

تنهدت ويندي بشكل تمثيلي:

- على ما يرام.. ينصرف مارتي بطريقة فظة.. ونحن نستعد للانتقال

إلى موناكو.

أرجعت شعرها الشاحب إلى وراء أذنيها وجلست قربه:

- أظنك ستكون غادرت الفراش إلى ذلك الوقت.. أليس كذلك حبيبي؟ على عكاز أو ما يشبه؟

- من الأفضل أن يكون هذا.. فقد سئمت الجلوس على ذنبي.. أريد الخروج من هنا.

- ومن يلومك؟ ستخرج على أي حال، وبسرعة سيد ريتشاردز.

أجفل صوت الدكتور موريث الجميع.. فابتسم:

- عفواً.. كان يجب أن أعلن عن وصولي.

قال غاي بسرعة:

- لا.. أدخل دكتور.. هل سمعتك جيداً.. هل قلت إنك ستطلق سراحي؟

هز الطبيب رأسه:

- نعم.. لا أرى سبباً يدعو لعدم خروجك بعد بضعة أيام.. لكن مغادرتك للفراش، كما نقول، قد تأخذ بعض الوقت.

قال غاي:

- أنا لا أتوقع أن أدخل سباقاً للضاحية.. كل ما أريده هو الوقوف على عكاز أو عصا.. أو..

قاطعه الطبيب:

- أخشى أن هذا ليس ممكناً الآن يا صديقي.

نفث أنفاسه بحدة:

- اسمع دكتور.. أعرف أنكم معشر الأطباء تسرّون حين يكون المرضى طريحي الفراش.. لكن هذه مجرد ساق مكسورة، وليست مرضاً معدياً..

- إنه كاحل مكسور، وليس ساقاً مكسورة.

- هذا أسهل.. فما من سبب يدعو لأن..

أقفل الطبيب الباب وراءه:

- كان كسراً معقداً يا سيد غاي.. وهو ليس بسيطاً بتاتاً.. وقد كُسِرَ

هذا الكاحل قبلاً.. صحيح؟

- وماذا؟

هز الطبيب رأسه مفكراً:

- ثم هناك إصابة الركبة.. العطب في عضلة الرباط

- لقد أخبرتني كل هذا قبلاً دكتور..

- سيدي.. لقد حان الوقت للحديث عن إصابتك بقليل من العمق والجدية.

نقل نظره بين الامرأتين.. ورفع حاجبه متسائلاً:

- ربما ترغب في أن تخرج السيدتان؟

ضحك غاي متوتراً:

- بالعكس.. بل من الأفضل أن تكونا هنا كشاهدتين.. قلت منذ خمس دقائق بأنني قادرٌ على الخروج من المستشفى.. والآن تتراجع.. هل ستخرجني من هنا أم لا؟

كتف الطبيب ذراعيه:

- سأخرجك من هنا.. إذا استمر كل شيء على ما يرام، ستخرج خلال بضعة أيام.

أضاء وجه غاي سروراً، وضرب بيده على فخذه:

- حسن جداً! وبندي، قولي لهازارد، انني سأكون في الموقع في موناكو خلال أسبوع.. و..

هز الطبيب رأسه: لا سيدي.

- عشرة أيام إذن.. ثم يجب نزع هذا الجبص من الكاحل قبل ستة أسابيع.. فلدي سباق.

تنحنح الطبيب بقاطعه:

- سيد ريتشاردز.. أظن أننا لا نفهم بعضنا.. المشكلة ليست بالجفصين لأنه سينتزع، كما نقول في ستة أسابيع، وربما لمانية.. إنما سنحتاج بعد ستة إلى جراحة حتى يتم انتزاع الألواح الفولاذية والبراغي.

- هيا الآن دكتور.. لا يمكنك أن تتوقع مني البقاء لمدة ستة هكذا..!

أكمل وكأن غاي لم يتذمر:

ـ أما بالنسبة لركبتك كان الرباط العضلي ممزقاً.. ولقد خيطت لك التمزق.. لكن..

كان صوت غاي هادئاً، لكنه قاطع كلمات الطبيب كالسوط:

ـ دعنا نصل إلى النتيجة.. متى سأقف على قدمي؟

نظرت آيرين إلى الجراح.. هي تتخيل أم أنه يتردد؟ إنه يختار كلماته بحذر قبل أن يرد..

لم يكن ردّ الطبيب في البداية ذا معنى:

ـ كانت حشود المصورين والمراسلين كبيرة هنا في الأسبوع الماضي سيد ريتشاردز، وسمعت كلاماً عن علاقتك بفيلم سينمائي وظننتك ممثلاً.

ضحك غاي، لكن بصوت شرس:

ـ ليس بالضبط دكتور.

ـ أعرف الآن أنك لست ممثلاً، بل سائق سباق سيارات. هذا صحيح.. لا؟

ـ أجل.. أنا متسابق لسيارات «فورمولا واحد».

ـ نعم.. لطالما شاهدت في موناكو هذه الرياضة سيدي، وما أدهشني أنني لم أربط اسمك بمهنتك.

تنفس غاي بحدة:

ـ دكتور.. أرجوك.. أوقف الدوران وادخل صلب الموضوع.

تنحنح الطبيب مرة أخرى:

ـ أخشى أن يكون عظم الكاحل عند المفاصل قد تفتت يا صديقي.. ولم يبق لدينا سوى شظايا.

اصطدمت كرسي وبندي بالجدار وهي ترجعها إلى الوراء..

ووقفت: سأكون في الخارج.

لكن أحداً لم ينظر إليها.. وتقدمت آيرين أكثر إلى غاي.. ووضعت يدها على كتفه.. تسلل توتره إلى جسمها وكأنه تيار كهربائي.

أكمل الطبيب:

ـ شظايا، مهما حاولنا جمعها، لم نستطع إعادتها إلى مكانها، كما خلقها الله..

تحشرج صوت غاي في حنجرته:

ـ أتقول لي بأنني لن أستطيع السير ثانية؟

ـ لا.. لا يا صديقي.. سوف تسير.. لكنك ستعرج.. ستسير، ولكن..

التوى فم غاي ثم ابتسم متوتراً:

ـ أستطيع العيش مع هذا.

ـ لكن سيبقى كاحلك في اتجاه واحد.. لن يستدير، لن ينطوي.. أما الركبة.. الرباط العضلي سيشفى، لكن الركبة لن تكون قوية.. لن تتحمل أي ضغط أبداً. السير قليلاً أجل. لكن الضغط المطول..

فرد ذراعيه بعجز: أتفهم؟

أحست آيرين بجسد غاي يتصلب تحت يدها.. نظرت إليه ثم إلى الجراح.. لقد وعد موريت بشرح كاف لحالة غاي.. لكن هذا أكثر من المعقول.

أرادت أن تقول شيئاً.. تقول إنها لا تفهم.. لكنها هنا دخيلة.. كلمات موريت دمّرت غاي.. ووجدت من غير الطبيعي أن تشهد على هذا.

شق صوت تنفس غاي الحاد الصمت.. وقال:

ـ لا أصدقك.. هناك أطباء آخرون، ومعالجات أخرى..

ـ أتمنى لو كان هذا صحيحاً يا صديقي.. لكن لا يوجد. حتى ولو عرفت نوع عملك مسبقاً ما كنت سأفعل أكثر مما فعلته.

أفلت غاي كتفه من يد آيرين وسأل بخشونة:

ـ متى أستطيع الخروج من هنا؟

ـ كما قلت، لا أجد سبباً لبقائك هنا سيد ريتشاردز.. قد تشفى بسرعة كبيرة بعيداً عن محيطنا هنا. ربما هناك مكان هادىء تذهب إليه، وشخص ما يساعدك؟

ـ تقصد ممرضة تنظف مؤخرتي.. أليس كذلك؟

ارتفع حاجبا الطبيب:

- أعرف أنها ليست الأخبار التي تمنيت سماعها سيدي.. لكن هناك من لا ينجو من حوادث كالتي حصلت لك. ويجب أن تكون ممتناً لأنك..

- وفر عليّ سماع المحاضرات دكتور.

- سيد ريتشاردز، أفهم ما تشعر به.. لكن..

- لا تحاول التخفيف عني موريت.. ليس لديك فكرة عما أشعر به.

- لكنني أعرف.. لقد أعطيت تشخيصاً كئيباً لحالتك و..

جذب غاي نفسه مجدداً من يد آيرين:

- أخرجا من هنا.. هيا.. أخرجا.

لم يكن هناك مجال للغلط في غضبه.. وسمعت آيرين شيئاً آخراً في صوته، الألم أو ربما أكثر.. انحنت نحوه، تبحث عيناها ملياً في وجهه:

- غاي.. أرجوك..

- ألم تسمعي؟.. قلت اخرجا من هنا.

ضغطت يد الدكتور على كتفها.. استدارت بعد لحظة مكرهة ولحقت بالطبيب إلى الخارج.

تقدمت ويندي إلى الأمام مع إغلاق باب غرفة غاي، تبرق عيناها إثارة، وقالت هامسة:

- سمعت كل شيء.. لكنني لا أفهم، لم هو منزعج هكذا؟

تنهد موريت، وهم يسيرون في الممر:

- سباق السيارات رياضة متطلبة جداً.. ربما لا تفكرين بالمتسابق كرياضي، لكنه هكذا.. يجب أن تكون ساقاه قويتين أكثر من اللازم..

قالت آيرين بقلق:

- حسناً، ماذا إذن؟ ساقاه الآن سليمتان.. لقد قمت بالواجب وأكثر تجاهه كطبيب.. فما الذي..

توقفت آيرين فجأة، وقد أصبحت نبرات كلام الطبيب واضحة لها.. لكنها لم ترغب في أن تصدق. توسلت عيناها إليه ليقول لها إنها مخطئة.. لكنه هز برأسه:

- نعم مدموزيل شرايدن.. أخشى أن يكون ما تفكرين به صحيحاً. قد لا تتحمل كاحل صديقك وركبته، الضغط.

قطبت ويندي ونظرت إلى الطبيب، وسألت بنفاذ صبر:

- أنا لا أقرأ الأفكار.. فهل لأحد منكما أن يخبرني ما يجري؟

تنفست بصوت متحشرج:

- غاي.. لن يتسابق بعد اليوم.. أليس كذلك دكتور؟

تنهد موريت:

- أنا لست بصانع معجزات.. لكنني أخشى أن يكون هذا صحيحاً.

شخرت ويندي ساخرة:

- هذا جنون.. جنون.. أقول لك.. كل ما حدث له هو أن كسر كاحله، ومزق بعضاً من ركبته الأخرى.. ويحصل للناس أسوأ من هذا بكثير، طوال الوقت.

هز الطبيب رأسه: أنا آسف جداً مدموزيل.

صاحت ويندي: أنت لا تفهم.. إنه في القمة.. إنه البطل..

ربتت آيرين على ذراع نسيبتها:

- لا تهتمي بهذا الآن.. يجب أن نسعى جهدنا ليتحسن.. إنه يحتاج.. يحتاج..

تململت ويندي نفسها:

- أجل.. شهر في الريف، وشخص يمسك بيده.. قلت لك إني سمعت كل شيء.

استدارت نحو المصعد تطلبه وتكمل بحدة:

- حسن جداً.. سأهتم بالأمر.. سأتصل بمديره وأخبره بحاجته لاستئجار كوخ في الريف، وإلى ممرضة.

حدقت آيرين بها.. لا شك أنها أساءت الفهم:

- إنه بحاجة إلى من يساعده ويندي.. شخص يهتم به.. وأنت قلت إنك تهتمين.. قلت..

- سيحصل على شخص ما.. سيساعدنا الدكتور موريت في الحصول على ممرضة جيدة.. ألن تفعل دكتور؟

ارتفع صوت آيرين:

ـ اللعنة ويندي! إنه يحتاج إلى أكثر من هذا.. لا يمكنك إدارة ظهرك له الآن.

ـ لا تتوتري هكذا آيرين.. لا أستطيع أن أكون حاضنة أطفال له، حتى أنني لا أستطيع تحمل رؤية الدم.. وتعرفين هذا.. أين هذا المصعد اللعين؟

ضربت الأزرار مجدداً.. وأكملت:

ـ ثم لدي عملي لأفكر به. قال مارتي إنه يفكر لي بدور ثانوي.. ليس كبيراً.. لكن..

انفتح باب المصعد، فدخلته بسرعة:

ـ سنغادر إلى موناكو بعد يومين آيرين.. من الأفضل أن تعودي إلى سانت آغاث الليلة وتوضبي أغراضك.

تهاوت آيرين إلى الجدار مع إقفال باب المصعد.. وقالت غير مصدقة:

ـ لن تساعده.. يا إلهي.. كنت أعرف أنها أنانية.. لكن..

ابتسم الطبيب يطمئنها:

ـ أرجوك، لا تقلقي مدموزيل.. لدي صديق يدير منتجعاً صحياً رائعاً في الجبال. سيكون للسيد ريتشاردز غرفته الخاصة، وكل العلاج الذي تحتاجه ساقاه.

ضحكت بحدة:

ـ غاي في مصح..؟ كيف ستوصله إلى هناك دكتور؟ هل ستربطه وتضعه في قفص؟

تململ الطبيب:

ـ إنه غاضب ومنزعج الآن. لكن بعد يوم أو يومين، حين يصبح مزاجه أكثر تعقلاً..

سحبت أنفاساً حادة، ثم أطلقتها ببطء:

ـ إنه لا يحتاج إلى رعاية ممرضة، صحيح؟ أعني ليس لرعاية محترفة..

ـ إنه يحتاج فقط إلى من يهتم بتمارينه بشكل مستمر، شخص يحاول تحسين نفسيته..

نظر الجراح إلى وجهها.. ثم قال بلطف:

ـ آه.. مدموزيل.. أستطيع أن أرى ما في قلبك. لكن هذا لن يكون حكيماً.. سيكون صديقك مريضاً، صعب المراس كثيراً..

رفعت آيرين ذقنها بعزم:

ـ قلت لتوك إنه ليس بحاجة إلى رعاية محترفة.. وأنا أكثر من قادرة على تغيير ملابسه.

ـ مدموزيل شرايدن.. لم ترغبين في تحمّل هذه المسؤولية؟

لماذا؟ إنه سؤال جيد.. لكنها ستتجاهل الرد عليه.. ليس بعد..

التقت عيناها بعيني موريت:

ـ لأن هذا.. كما يبدو لي، الأمر الوحيد الصائب.

ـ يا عزيزتي الشابة.. لن تكون مشكلة السيد ريتشاردز طبية أكثر مما هي نفسية. يجب أن يصل إلى تفاهم مع نفسه، وأنا أشك في أن تكون كلفة هذا مرتفعة.. هل تفهمين؟

ـ أعرف أن الأمر لن يكون سهلاً عليه.. لكن..

ـ ولن يكون سهلاً عليك أيضاً.. وسيلزمك الكثير من القوة، مدموزيل شرايدن.. عديني أنك ستفكرين مرتين قبل إلزام نفسك بمثل هذه المهمة.

* * *

وفكرت جيداً.. وكلما تعمق تفكيرها، كلما آمنت أنها تريد القيام بها أكثر فأكثر، وكل ما عليها أن تفعله الآن، هو إقناع غاي بالموافقة.

لم تكن آيرين حمقاء لتكلمه عن رعايته الطبية.. بل عرضت عليه اقتراحاً، قد يفيدهما معاً. وشرحت له وجوب عودتها إلى وطنها بسبب فشل عطلتها الصيفية:

ـ لم أتفق أنا وويندي، وليس لدينا أي قاسم مشترك.

وهذا على الأقل صحيح. نظر غاي إليها ولحظات غادر الغضب

عينيه، وقال بنعومة:

ـ لا.. لا أظنكما متفقتين.. لكن ماذا عن التزامك مع هازارد؟

ـ لقد وجد السيد هازارد مترجماً بديلاً عن المستقبل.. وبإمكانه القيام بعمله وعملي معاً، وهم يغادرون الآن سانت آغاث إلى «موناكو».

ـ حسناً.. وما دخل كل هذا بي؟

قالت متصلبة: فكرت أن نساعد بعضنا.. فأنا بحاجة إلى وظيفة.

ـ لكنك قلت بأنك ترغبين في العودة إلى الوطن.

ـ هذا صحيح.. لكن تذكرة الطائرة ليست صالحة قبل نهاية الصيف.. لذا فكرت.. فكرت.. أنت.. وأنا..

كادت شجاعتها تخونها.. أمام النظرة الثاقبة في وجه غاي:

ـ فكرت أن نساعد بعضنا.. أنت تحتاج إلى من يساعدك في الأسابيع القادمة، وأنا أحتاج إلى عمل.. هل تفهم ما أرمي إليه؟

رد بصراحة، مع أنها متأكدة من أنه كان يكذب: لا.

إنه يعرف، لكنه يحاول إجبارها على قول ما في نفسها:

ـ ما أقترحه هو أن نوحّد جهودنا معاً.. أنا لا أحتاج إلى المال، بل مجرد غرفة وطعام.. وأنت..

ـ.. أحتاج إلى ممرضة.. هل فكرت أنت وجامع العظام بهذا معاً؟

تجاهلت التحدي في كلماته:

ـ سأكون معك إن احتجت إليّ.. أستطيع قيادة سيارتك ونقلك إلى حيث تريد، وأقوم عنك بالتسوق.. وكل هذه الأمور.

ـ هيا، انسي الأمر.. سأعطيك المال اللازم لشراء تذكرة سفرٍ أخرى.

ـ أنا لا أبحث عن إحسان غاي.. لو أردته، أستطيع الحصول عليه من أي مكان آخر.

لمعت أسنانه بابتسامة باردة:

ـ فهمت.. أنت إذن لست متسولة.

ـ لا.. لست كذلك. لهذا أقترح عليك الاتفاق.. ربما تمكنا من مساعدة بعضنا.

ـ ربما لديك ميل نحو المعاقين.

أجفلتها كلماته.. لكنها حافظت على رباطة جأشها:

ـ أنا لن أشرّف كلامكَ حتى بالتفكير بالرد.

ـ ربما اعتدتِ على من يستغلكِ.

كانت تعلم أنه يتعمّد جرحها، وهذا سبب قساوته. لكن شيئاً في تعليقه لامس فيها وتراً حساساً.. فردت قبل أن تتمكن من منع نفسها:

ـ ربما أنت تتمتع بأن تكون نذلاً ووقحاً.. يا إلهي.. أنا آسفة.. لم أكن أعني..

للحظة لمع وميض نور في عيني غاي.. وقال:

ـ لا تعتذري.. أستحق ما قلتِه.. حسن جداً.. ليكن ما تريدين.. فما الفائدة.. لن يطلق موريت سراحي قبل أن يتأكد من أنني سأحصل على ما يقول عنه «الرعاية المناسبة» وهذا لن يتم إلا عن طريق مصح تديره أخوات الرحمة.. أو أنت.. أمام هذا، ما هو الخيار أمامي؟

أحست آيرين بقلبها يخفق بشدة. قالت تحاول أن تبدو هادئة:

ـ سأهتم بكل شيء.. سأجد مكاناً هادئاً.. يقولون إن الجبال رائعة قرب «غراس»... و..

استدار إليها مجدداً، بعينين خاليتين من المشاعر:

ـ وفري عليّ سماع التفاصيل.. تأكدي فقط من أنه مكان لا يجده الباحثون عن الأخبار.. لن أدع فضولياً يراني هكذا.

شدّ على أسنانه، ثم مد يده إلى الطاولة قرب السرير. فتح الدرج الأعلى، وسحب دفتر شيكات وقلماً.. وخط اسمه بشراسة، ودفع بدفتر الشيكات إليها:

ـ خذي اصرفي ما تحتاجين إليه، استأجري سيارة، وخدم.. أي شيء ليخرجني من هذا المكان..

لامست يدها يده، وهي تأخذ دفتر الشيكات منه.. كانت بشرته باردة، جافة.. وكأنه كبر سناً خلال أسبوعين.

ـ لن تندم على هذا غاي.. أعدك.

أسكتتها برودة نظرته:

ـ لا تقطعي وعوداً لن تستطيعي الوفاء بها.

وأدار ظهره إليها.

لم تصدق ويندي حين قالت لها آيرين ما ستفعله.

ـ ما نوع هذا السخف، آيرين؟ قلت لك إننا سنجهز له مكاناً ليقيم فيه، وممرضة، و...

ـ اتفقنا على كل شيء ويندي، ولن أغيّر رأيي.

حدّقت نسيبتها بها بحيرة: لا يمكنك فعل هذا بي.

ـ أنا لن «أفعل» شيئاً بك.. غاي يحتاج إلى من يرعاه.

ـ وماذا عني؟ لم يعجب مارتي الترجمان الجديد كثيراً.. وبلح بالسؤال عن عودتك مجدداً، ويلومني على غشي له حين استخدمني.

ابتسمت آيرين بإشفاق: أتمنى لو أستطيع مساعدتك.

ـ تستطيعين مساعدتي.. عودي فقط إلى رشدك.. على أي حال أنت نسيبتي.. نسيبتي المفضلة..

دوّت الجملة القديمة المشتركة بينهما في أذني آيرين كنغمة شاذة من وتر بيانو معطل. وقالت بهدوء:

ـ لن ننجح هذه المرة.. وأنا آسفة ويندي.

تلاشت نظرة البراءة المتسعة العينين عن وجه ويندي.. وقالت ببرود:

ـ أنت شفافة كالزجاج.. لديك ولع مراهقة بغاي.. هذا هو الأمر كله.

ـ هذا غير صحيح.

تحول الوجه الجميل إلى وجه حجري:

ـ لطالما عرف غاي كيف يستغل من حوله.. مع أن هذه أصبحت الآن الكلمة الخاطئة.. إذ لن يكون لك منافسة، بعد أن أصبح مقعداً.

حبست آيرين أنفاسها:

ـ كيف تستطيعين تسميته هكذا؟!

ـ لن تسنح لك الفرصة معه لو كان رجلاً كاملاً.. وكلانا يعرف هذا.

حدّقت آيرين بنسيبتها غير مصدقة..

ـ فكري كما تشائين.. ويندي.. فأنا لا أهتم برأيك أبداً.

فغرت ويندي فمها.. بدت كسمكة عالقة في سنارة وفكّرت آيرين: لقد صدمتها فعلاً.. إدراكها هذا جاء بموجة رضى مدهشة إلى نفسها.

* * *

الأيام التي تلت كانت متعبة.. علمتها الممرضات كيف تغيّر الرباطات لركبة غاي، وكيف تنظم له الدواء.. نصحها الدكتور موريت بسمسار أملاك أصغى إلى آيرين بصمت، ثم ابتسم، وأخرج صورة من طاولته.

يصعب معرفة شيء من خلال هذه الصورة.. فالكوخ المناسب كان صورة داكنة ضمن محيط قاتم.

وأكمل السمسار:

ـ انظري الزيتون..

بستان زيتون.. قد يكون هذا رائعاً.. في الواقع، كل ما يهم هو أن يلبي الكوخ طلبهما.. وقد أكد لها السمسار وجود هذا.. غرفة نوم وحمام لغاي في الطابق الأرضي، والشيء نفسه لها في الطابق الأعلى.. والمكان بعيد بما يكفي عن أي مدينة لتأمين الخلوة المناسبة التي يتطلبها غاي..

وقّعت عقد الإيجار، وأسرعت تعود إلى المستشفى تحمل الصورة المشوشة في جيبها.. لكن غاي رفض النظر إليها، ورفض المشاركة في أي تخطيط. وكلما سعت إلى أخذ رأيه كان يقول:

ـ افعلي ما تشائين. لن أهتم بأية طريقة كانت.

كان صامتاً وقد ساعده ممرض كبير في السن على الصعود إلى السيارة يوم خروجه من المستشفى.. وبقي صامتاً مع انطلاق آيرين بالسيارة.. كان ظهره منصلباً وهو يجلس إلى جوارها.. وماذا عن ساقيه؟ إحداهما في الأربطة، والأخرى في دعامة معدنية، ممدودة تحت رف لوحة القيادة.

قالت آيرين بحبور:

ـ حسناً.. ها نحن ننطلق.. أتمنى أن لا يكون هناك زحمة سير على

الطريق العام.

لم يرد غاي.

- معي خريطة هنا.. لقد رسم السمسار لنا الطريق.. فكرت لو أنك..

- أنا واثق أنك قادرة على إيجاد الطريق.

وكان هذا آخر ما قاله للساعة والنصف التي تلت..

لم تكن تتوقع أن تشعر بأنهما منطلقان إلى عطلة.. لكنها تركت نفسها تأمل أن يخفف غاي من توتره وهما يغادران المستشفى، ثم بتركان المدينة خلفهما.. كان الريف الممتد في كل اتجاه، جميلاً.. يتخلله مزارع صغيرة، وكروم عنب. كان الهواء نظيفاً ومنعشاً.. والشمس ناعمة فوق الرؤوس.

لكن غاي لم يستجب لكل هذا. بل جلس يحدّق من النافذة الأمامية، بصمت كامل، دون أن ينظر مرة إليها، أو أن يعترف بوجودها.

أصبحا الآن على طريق ضيق.. وخففت آيرين سرعة السيارة.. لكنها كانت تتنطط فوق سطح الطريق الوعر.. وأجفلت بألم لرؤية ساقي غاي تصطدمان برف لوحة القيادة.

قالت تمسك بالمقود بشدة: آسفة.

لانت الطريق لفترة.. ثم عادت إلى أسوأ مما كانت عليه. وأخذ غاي يتأوه ألماً. فقالت مجدداً:

- آسفة.. إنني أحاول أن لا..

- لا بأس في هذا.

- هل تزعجك ساقك؟ أستطيع التوقف قليلاً لو..

- قلت إن لا بأس في هذا.

- لو كانت تؤلمك. لماذا لا تأخذ قرصاً؟.. هناك إبريق ماء عازل في العلبة و..

نظر إليها بغضب:

- ربما تحب ويندي أن تعاملها كأم ترعى صبيانها.. لكن هذا يزعجني.

ابتلعت ريقها: كنت أحاول فقط أن..

قاطعها ببرود:

- سأعقد اتفاقاً معك.. لا تعطيني إرشادات طبية، ولن أقول لك كيف تقودين هذه السيارة اللعينة.. ما رأيك بهذا؟

هزت رأسها: آسفة، كنت أقصد فقط..

ضرب لوحة القيادة بقبضته.

- لأجل الله.. توقفي عن الاعتذار.. أوصلينا فقط إلى ذلك المنزل اللعين الذي استأجرته.. أين هو بحق السماء على أي حال؟ إذا تقدمنا أكثر من هذا سنصبح في إيطاليا.

- سنصل قريباً.. قال السمسار أن أبحث عن كوخ في قمة تل.. وهو قديم جداً.. له سقف قرميدي و...

غيّر غاي موضعه:

- هل هذا هو؟

لحقت آيرين باصبعه.. في البداية لم ترَ شيئاً سوى أشجار الزيتون.. ثم لمحت عبر فسحة بين أغصانها، جدراناً حجرية، وسقفاً قرميدي أحمر.

- ربما.. دعنا نلقي عليه نظرة من قريب.

لقد وصلا.. وعرفت هذا قبل أن تتوقف أمام المنزل. لقد وصف لها السمسار كل شيء: الأشجار، المنزل القديم، الحديقة الجانبية المليئة بالعشب النامي.. حتى أشجار السرو الضخمة الملتفة حول المنزل.

شتت صوت غاي الأجش اللحظة الهادئة:

- حسناً؟ هل هذه هي جنتنا الصغيرة أم لا؟

تنفست بعمق، ثم ابتسمت ابتسامة زائفة: أجل.. وانفتح الباب على مدخل بارد معتم، له جدران بيضاء وسقف خشبي. وقفت جامدة للحظة، ثم اتسعت شفتاها بابتسامة، وأسرعت عائدة إلى السيارة. رفعت كرسي غاي المتحرك من الصندوق.

- إنه مكان جميل.. فيه موقد كبير، وسلم حجري، و..

أمسك غاي ساقه اليمنى، وأخرجها من السيارة:

- ودرج يوصل إلى الداخل.. أم أنك لم تلاحظي هذا؟

ـ أجل . . لكن درجتان فقط . . أما الداخل .

ـ من الأفضل أن يكون هناك غرفة نوم وحمام في الطابق الأرضي .

ـ هات يدك . . دعني أساعدك .

أبعد يدها عنه، وقال بحدة:

ـ لا تلمسني . . أستطيع أن أتدبر أمر نفسي كل ما عليك أن تفعليه هو تقريب تلك الكرسي اللعينة إلى السيارة، وإمساكها بثبات .

تذمر متألماً وهو يخرج ساقه الأخرى، ثم رفع نفسه إلى الكرسي .

ـ الآن . . استدعي أحداً ليرفعني فوق السلم

مررت آبرين بلسانها على شفتيها، وقالت: أستطيع القيام بهذا . . علمتني الممرضات كيف .

نظر إليها بعينين مسودّتين وقد نفد صبره :

ـ قلت لك أحضري أحداً . . مدبرة المنزل أو . .

ـ ليس . . هناك أحد . . أنا فقط .

نظر إليها وكأنها مجنونة :

ـ عن ماذا تتكلمين؟ قلت لك أن تستأجري خدماً . . لماذا لم تفعلي؟

ابتلعت ريقها بصعوبة . . أين كل تصميمها لتكون قوية؟

أجبرت نفسها على التنفس بعمق، ثم التفت بعينيه :

ـ لقد دبّر لنا السمسار امرأة لتنظف وتغسل الملابس . أما الباقي . فلأنك كنت قلقاً حول الخلوة، والمراسلين الصحفيين، وكل هذا . فكرت أنه من الأفضل بدونهم . . وأنت قد صممت أن تكون وحدك . وستكون وحدك . ما عداي بالطبع .

أصدرت الكرسي صرير احتجاج عند إمساك غاي لإطاريها وبدأ يدفع نفسه نحو الباب .

ـ ستكون هذه أول وآخر مرة تجريني فيها فوق هذه الدرجات اللعينة . . اذهبي غداً إلى البلدة، واستأجري من يساعدنا . . أسمعت؟

ـ أجل . . سمعتك .

ولكن ما كانت تسمعه ويزعجها بشدة، هو خفقان قلبها المتصاعد، المرتفع النوبرة تجاه غاي .

٥ ـ رجل تحت الرماد

لم يكن هناك مجال للذهاب إلى البلدة في اليوم التالي ولا في اليوم الذي يليه . . فقد انهمر المطر دون توقف . . يحوّل الطريق الترابي إلى برك من الوحل . وأصبحت قيادة السيارة إلى البلدة أمراً صعباً، إذا لم يكن مستحيلاً .

كان من الواضح لهما في الوقت الذي تحركت فيه الغيوم مبتعدة، وأشرقت الشمس، أنهما لا يحتاجان إلى أحدٍ آخر . . كانت المرأة، عاملة التنظيف، وهي زوجة مزارع محلي، قد رتبت لهما أمر استلام الجبن والبيض واللحم . . التي تصل كلها إلى الباب في عربة يجرها حمار . كانت آبرين تطهو وجبات بسيطة، تأكلها مع غاي بصمت على طاولة خشبية عتيقة أمام المدفئة أو على التراس المطل على الحديقة المليئة بالأعشاب والزهور البرية .

كان الكوخ والأرض المحيطة به، كما وعد السمسار، رائعين . وتراجعت غبطة آبرين مع مرور الأيام بالمكان . . سحر أعمدة السقف، والحجر المدهون بالأبيض لم يكن كافياً للوقوف في وجه التوتر الذي كان يخيم على المنزل .

كان غاي لا يتكلم إلا وقت الضرورة، وفي جمل مختصرة، تقطع المجال أمام أي حديث آخر . . لم يكن يهتم بحديثها . . كان يحرك كرسيه أحياناً خارج الغرفة وسط كلامها معه . . وفي أوقات أخرى كان يجلس دون أن يسمع، محدقاً في الفراغ .

كانت تراقبه بطرف عينها، جالساً هكذا . . وتفكر بالحياة البسيطة

التي كان يحياها.. كم يمكنه أن يستمر هكذا؟ لن يبقى شيء من غاي ريتشاردز سوى الظل.

تمنت آيرين لو أنها جلبت معها الكتب أو ورق اللعب.. فتشت الخزائن والرفوف دون نجاح.. أخيراً، ذات صباح، جذبت السلم المعلق في المطبخ والموصل إلى السقيفة، وتسلقته إلى فراغ مظلم لا هواء فيه، مليء بالصناديق والأثاث القديم.. نزلت بعد ساعة، وهي تعطس من الغبار، منتصرةً، تحمل رقعة شطرنج ونصف دزينة من الكتب الصغيرة.

نظفت كل شيء، ثم دخلت غرفة الجلوس تحمل طاقم الشطرنج:

ـ أنظر ماذا وجدت.

وانتظرت.. واستدار أخيراً نحوها.. رفعت الرقعة وسألت: أتلعب؟

هز رأسه بجهد وكأنه يستخدم آخر طاقاته، فقالت:

ـ وأنا كذلك. لمَ لا..؟

استدار مجدداً قبل أن تنهي اقتراحها.. ثم حاولت عرض الكتب عليه، بابتسامة مصطنعة:

ـ ماذا تحب أن تجرب؟ كوليت، فولتير، دوموباسان؟ كلها بالفرنسية.. لكنني أستطيع أن..

قال ببرود:

ـ أنا واثق أنك تستطيعين.. لكنني لست مهتماً.

خبت ابتسامتها وتقدمت خطوة نحوه: غاي.. لا يمكنك أن..

ـ دعيني وشأني.

ـ غاي.. أرجوك، استمع لي.. هذا غير صحي.. أنت..

تعثرت إلى الوراء وهو يحرك الكرسي من أمامها.

كانت رسالته واضحة تماماً: دعيني وشأني.. أنا لا أريد منك شيئاً.

كان جسد غاي يتماثل للشفاء، واستطاعت أن ترى التحسن في ركبته في كل مرة كانت تغيّر له الرباط.. كما كانت تعرف أن العظام في قدمه كانت تلتحم تحت الجبص. لم تكن روحه المعنوية هكذا.. فقد بدت تزداد سوءاً.

كان صعباً عليها أن تعرف ماذا يحدث، كان عالم غاي ينهار وينتظر،

المجهول.. وهذا ما كان يرغبه. وهذا ما أحست به منذ سنوات طويلة، يوم مات والديها..

وبدأت تشعر بتوترٍ.. سببه الجمود، وعدم الحركة، فهي غير معتادة على هذا.

بدأت تبحث في الكوخ وما يحيط به عن أي شيء قد يشغل الساعات التي تمر متثاقلة. وجدت خلف المنزل سقيفة قديمة كانت مليئة بالغبار وشِباك العنكبوت.. لكنها وجدت في زواياها، بعض المعدات للحديقة.

ركعت لتأخذ رفشاً صغيراً صدئاً.. وانتشرت ابتسامة على وجهها.. إنها لم تعمل في حديقة منذ سنوات.. لكنها طالما أحبت هذا العمل.

بدأت العمل بعد ظهر ذلك اليوم في الحديقة، وتقطر العرق من وجهها، وآلمتها عضلاتها من جراء تمرين لم تعتد عليه.. لكنها أحست بالروعة لقيامها بشيء مفيد.. لكن، مع مرور الأيام، لم تعد الساعات الطويلة من انتزاع الأعشاب الضارة وجرف الأرض كافية لتخفف التوتر الذي كانت تحس به متعاظماً بداخلها.

كان شيء غريب عن طبيعتها يطمس حنانها، ومضت أيام طويلة قبل أن تجبر نفسها على تسميته.

إنه الغضب.. ما تشعر به نحو غاي هو الغضب.

نظرت في هدوء غرفتها، نظرت إلى نفسها في المرآة، وهمست:

ـ أنت مجنونة.. يمكن للمجنونة وحدها فقط أن تغضب من رجلٍ في كرسيّ متحركٍ.

قررت أنه من الأفضل لها أن تسير مسيرة غاي.. وتحذو حذوه، فلا تقول شيئاً.. وهكذا توقفت عن محاولاتها المجنونة للحديث، وانقلبت إلى صامتة مثله.

أعطت كل أيامها للحديقة، وكانت تمضي لياليها وأنفها في كتابٍ سبق أن عرضت عليه يوماً قراءته بصوت مرتفع..

وانكسرت حطبة في إحدى الأمسيات بفعل النار في المدفئة.. رفعت رأسها لتلاحظ أن غاي كان يراقبها. إنه الاتصال البصري الأول بينهما منذ وقت طويل، وكان هذا مثيراً للاضطراب وكان التعبير على وجهه مزعجاً

كذلك. كان في نظراته إليها الدليل الواضح على أنه كان يفعل هذا منذ وقت طويل وفكرت أن تقول له شيئاً:

- هل تريد شيئاً؟

هز رأسه: لا.

إذن لماذا لا يزال يحدق بها؟

- هل أنت متأكد؟ أصنع لك بعض الشاي أو القهوة إذا أحببت.

لم يرد. بل استمر ينظر إليها فأكملت:

- هناك بسكويت بقيت من...

قاطعها:

- حسن جداً.. ليس هذا حديثاً شديد الحيوية، لكنه أفضل من لا شيء.

ارتفع النون إلى خديها: وماذا يُفترض بهذا أن يعني؟

- لقد حاولت جاهداً أن أبرهن بأن عملك هذا لن ينجح بتاتاً لكنك لم تستمعي إليّ.

- لست أدري ما..

- لا تحاولي قول هذا لي.. تنتابك الكآبة منذ أيام..

- لم أكن مكتئبة.

- بلى.. ولم لا؟ فهذا المكان أشبه بالقبر اللعين.

أقفلت كتابها:

- آسفة لإحساسك هكذا.. يبدو لي رائعاً جداً..

- وماذا يمكن أن يكون سوى قبر وأنت مسجونة هنا تعتنين بمُقعد؟

بدأت كتلة من التوتر تنمو داخل معدتها.. لكنها قالت بهدوء:

- أنا لم أنذمر.. وأنت لست مقعداً.. وستقف لتمشي عما قريب.

- لأحمل كوبَ تسولٍ في يدي؟

- بل لحياةٍ تحياها.. لو أنك فقط..

قاطعها ببرود:

- هل أنت حقا حمقاء لا تفهمين؟ لن أستطيع دخول السباق بعد الآن.. هذا ما قاله موريت..

- لقد قال إنك أفضل لا تستطيع السباق.. هذا ما قاله.

أرجع غاي كرسيه بحدة إلى الوراء.

- ما الذي تعرفين عن هذا أيتها الفتاة الصغيرة؟

- أعرف أنه غير كاف لأن تجلس وتكتئب.. و..

- آه.. تقدم الفلاحة الصغيرة النصيحة.. كم أن هذا ساحر.

تنفست بحدة:

- لقد سبق وطلبت منك أن لا تدعوني هكذا.

التوى وجهه سخرية:

- ما بالك آيرين؟ ألا يعجبك كلام الناس في العالم الحقيقي؟

ارتجفت يدها وهي تضع الكتاب على الطاولة. ثم وقفت عن كرسيها واتجهت نحو باب غرفة الجلوس.. ورعد صوت غاي خلفها:

- أين تظنين نفسك ذاهبة؟

إنه يحاول افتعال مشاجرة.. لكنها لن تسمح له.

- إلى الفراش، كان يومي متعباً.

شخر غاي ساخراً:

- هيا اذهبي.. أهربي أينها الفتاة الصغيرة.. فالحقيقة كبيرة عليك.. كنت أعرف هذا.

تنفست آيرين بعمق: اسمع.. ليس من داعٍ لأن..

- هيا اذهبي.. أخرجي من هنا.. اذهبي وأحلمي أحلامك الحلوة.

استدارت نحوه بحدة:

- اللعنة عليك غاي ريتشاردز! لا تتجرأ على الكلام معي بهذه الطريقة مرة أخرى.

ساد صمتٌ مكهربٌ بينهما وبدا أنه يشرفُ في الغرفة المعتمة نسبياً.. نظرت إليه بغضب، وتقدمت إلى الأمام تكافح لكي تبقى هادئة

- أنت مُجحفٌ بحق نفسك.. وتظن بأنك الرجل الوحيد الذي انقلب عالمه رأساً على عقب.

أدار كرسيه عنها، ثم لوّح رأسه بازدراء.

- أجل.. سمعت أن الحياة قاسية في كل مكان.

تقدمت آبرين في الغرفة لتقف لي وجهه، وارتفعت يداها إلى خصرها تقول:

ـ هذا صحيح.. إنها هكذا.

التوى فمه سخرية:

ـ ماذا ستكون هذه.. خطبة عصماء عن مدى حظي لبقائي حياً؟ انسي الأمر.. سمعتها قبلاً.

ـ لا.. ما من خطبة، فشخص أناني مثلك لا يستمع إليها.

تلاشت بسمته المتعجرفة وقال بهمس خطير:

ـ أناني؟ أهذا ما تظنين؟

ـ وهل تهتم حقاً بما أظنه؟

تنفس أنفاساً متقطعة: أنا.. أنا..

وصمت طويلاً.. ثم نظر إلى الأسفل، وقال متشدقاً: لا.. ولماذا أهتم؟

ـ إذا كنت تظن أنك الوحيد المتألم..

ضحك:

ـ لا تقولي لي إنك لم تحصلي على لقب الملكة العائدة.. أو ربما على موعد لحفلة التخرج الراقصة..

قاطعه صوتها بحدة ووضوح:

ـ مات أبي وأنا في الحادية عشر.. ولحقت به أمي قبل انقضاء عام على وفاته، وأرسلت لأعيش مع أهل ويندي.

جلست بتمهل على حافة الصوفا، والتقت عيناها بعينيه. كان يراقبها وكأنه لم يرها من قبل. أكملت بصوت منخفض لنفسها أكثر من أن توجه الكلام له:

ـ هذا هو أول معرفتي بما نسميه الحياة الحقيقية.

تنحنح:

ـ أنا آسف.. لم أكن أعرف.. ويندي لم..

هزت آبرين كتفيها:

ـ لماذا تفعل؟ لم يكن لهذا بالنسبة لها أهمية كبرى. كانت مشغولة

بحياتها الخاصة.. ولطالما كانت مشغولة بها. ولا أظنها لاحظت وجودي في البداية، ما عدا حين كنت أقف في طريقها.

صمتت مجدداً.. وأخذت الذكريات تتدفق عائدة، لا تزال مؤلمة بعد كل تلك السنين.. من زاوية في رأسها، جاء صوت مرتبك يسألها بإصرار ماذا تفعل؟ لكن تأخر الوقت جداً لتتوقف الآن.. فتكلمت بعد أن أحست بنفسها تسترخي.

قال بصوت أجش:

ـ حسن جداً.. لا بد أن الحياة كانت خشنة عليك.. لكن...

ـ خشنة؟ كنت في الحادية عشرة من عمري غاي.. كنت مجرد طفلة.. وليس من طريقة لأصف مدى الوحدة التي أحسست بها.

تصاعد صوت إطارات الكرسي وهو يدفعها نحوها:

ـ حسناً.. كنت مخطئاً.. تعرفين ما هو الألم.. لكن..

ارتفعت عيناها إلى عينيه، وتنفست عميقاً:

ـ نحن لا نتكلم عن هذا.. نحن نتكلم عن الاستسلام.

ـ الانهزام.

ـ أستسلام، انهزام.. سمه ما شئت.. فأنا خبيرة به.. وهذا ما فعلته ولزمن طويل.. و.. كان أمامي خيار بين أن أواجه ما سيأتي، أو أن أزحف داخل نفسي لأتقوقع مختبئة.

وضع غاي يده على يدها وقال بلطف: كنت مجرد طفلة.

ـ هكذا اختبأت.. تجاهلت حياتي الخاصة.. وقفت في الخلف بينما الجميع كان يتقدم.. لكنك أنت..

نظرت إليه مجدداً، وقالت بصوت فولادي:

ـ أنت لست طفلاً غاي.. أنت رجل ناضج في أوج حياته، فلا تدع الزمن يتسلل مبتعداً عنك.

أبعد يده عن يدها، وقال ببرود:

ـ ها قد عدنا.. إنها خطبة، على أي حال.

التوت ابتسامتها:

ـ لا.. إنها مجرد نصيحة، من خبيرة في الاستسلام لمستسلم آخر.

أجفل من كلامها وكأنها صفعته. . وقال غاضباً:

ـ لا تعرفين ما تقولينه. . أريد فقط أن أتركَ وشأني. . فهل هذا صعب جداً أن. .

ـ تباً لك غاي ريتشاردز. . اصغ لنفسك فقط. . الانهزام هو انهزام، مهما حاولت تبريره!

أحست بقلبها يتحطم لرؤية الألم الذي انتشر على وجهه. . وقال بهمس أجش:

ـ أنا لست جباناً. . اللعنة عليك! لم أهرب من أي شيء في حياتي.

ـ أنا لم أقل إنك جبان.

ـ أعرف ما تفوهت به. . ولا يعجبني إطلاقاً. .

قالت بصوت منخفض، وبعينين ثابتتين:

ـ لقد حدث لك شيء رهيب غاي. . وأمامك الآن خيارين: إما مواجهة ما حدث، وإما أن تتقوقع داخل نفسك، كما فعلت أنا. وإذا فعلت هذا. . إذا فعلت. .

فجأة أفلت زمام نفسها من يدها، وبدأت تبكي. . تبكي للطفلة الضائعة التي كانت. . وللرجل البائس حاله الآن. . وأخذ غاي يلعن في سره، ثم أطبقت ذراعاه حولها. . فقالت ناحبة:

ـ أنا. . لا أعرف لماذا أبكي. . أنا. . أنا. .

تماسكت متصلبة للحظة أخرى، لكن ذراعيه كانتا دافئتين حولها، ومريحتين. . أحست بالأمان بطريقة لم تحسّ بها من قبل. . انزلقت عن الصوفا تركع على ركبتيها إلى جانبه. . همس غاي باسمها، ثم ضمها إليه بحنان خطف أنفاسها. . ارتفعت ذراعاها إلى عنقه، ودفنت وجهها في صدره.

قال مهدهداً، يمسح شعرها: لا تبكي. . أرجوك لا تبكي.

استمرت تنهمر الدموع من تحت رموشها، وهمست:

ـ يجب أن نقاوم. . أتفهم؟ وإلا. . وإلا. .

ـ هس. . صه.

ضمها إليه مجدداً. . فأغمضت عينيها. . تنفس بعد فترة طويلة نفساً

متكسراً، وقال بهدوء:

ـ حسن جداً. . سنعقد اتفاقاً.

قاطعته ساخرة:

ـ لا نصيحة طبية مني. . ولا دروس قيادة منك. .

تراجعت إلى الوراء تبتسم بارتجاف.

ـ هذا كان الاتفاق الذي عقدناه يوم وصلنا إلى هنا، أتذكر؟

ابتسم:

ـ لقد نفذت الاتفاق من جهتك جيداً. . لكنني كنت بحاجة إلى النصيحة من وقت لآخر.

ردت ابتسامته:

ـ وهل سيكون هذا الاتفاق مختلفاً؟

ـ أجل. . سأحاول إذا ساعدتني. . ما رأيك بهذا؟

أحاطت يداه بوجهها، فتمتمت:

ـ يبدو لي. . اتفاقاً رائعاً.

هز رأسه بوقار: لنتصافح إذن.

وضعت يدها بيده: حسن جداً.

ـ آبرين.

بقي صوته معلقاً في الصمت المفاجىء. ثم ضمها إليه مجدداً.

مكثت راكعة أمامه. . ضائعة من سحر اللحظة وسحر عناقه. .

تجاوبت معه، ترد له العناق باستسلام لم تعرف مثله من قبل.

فجأة جمد. .

ـ أنا. . أظن. . يجب أن نتوقف الآن قبل أن. . أن. . أنا شاكرٌ جداً لك آبرين. . لكن. .

شاكر. . شاكر. . ألهذا كان يعانقها بهذا الشوق. . لأنه يحس بالامتنان؟ تمكنت بطريقة ما أن تبتسم. . ووقفت ببطء.

ـ ليس عليك أن تفسر شيئاً لي. . على أي حال، الوقت متأخر.

تقدمت إلى الموقد، تلتقط قضيب التحريك وتنحني نحو النار.

ـ أظن بأننا يجب أن نرتاح. . ألا تظن هذا؟ هل أبقيك بشيء قبل أن

www.liilas.com

أصعد إلى غرفتي؟ شوكولا ساخنة، قهوة شاي؟

تركزت عيناه على وجهها:

ـ آيرين.. ما بك؟

ـ لا شيء. لا شيء صدقاً.. أنا فقط.. متعبة.. كان يوماً طويلاً، شاقاً.

مد يده وهي تمر به، والتفت أصابعه على يدها.. دافئة مليئة بالقوة. وقال هامساً:

ـ آيرين.. شكراً لك على كل شيء.

همست بدورها:

ـ أرجوك.. لا تشكرني.. دعنا لا..

ـ لم يكن سهلاً كل ما تفوهت به الليلة. وأريدك أن تعرفي.. أنني.. ممتن لك.

ممتن، ها هي الكلمة البشعة مجدداً.. إنه ممتن..

ـ آيرين؟

نظرت إليه، ولامست شفتاه يدها وهمس: تصبحين على خير.

راقبته يجر كرسيه إلى خارج الغرفة.. لأول مرة منذ أسابيع.. كانت كتفاه مستقيمتان ورأسه مرتفع. لقد فعلت كل هذا له.. أرسل إدراكها هذا إثارة سعادة فيها.. وارتسمت بسمة على شفتيها.. لكنها خبت بسرعة.

لقد ساعدته على أن يجد نفسه.. وهو ممتن لها لما فعلت.. لكنها لا تريد امتنانه.. ما تريده هو حبه.

* * *

متى وقعت في حب غاي؟

حاولت آيرين جاهدة فهم أسباب مشاعرها المتعثرة حين كان الفجر يلوّن جدران غرفة نومها البيضاء، باللون الزهري.. فهي لم تقع في حبه الليلة! تعرف هذا، إنها تحبه منذ عدة أسابيع.. أحبته حتى قبل ليلة الحادثة المشؤومة.

انقلبت متنهدة على معدتها، ودفنت وجهها في الوسادة.. لهذا إذن

حبست نفسها هنا؟.. ما نوع هذا الغباء الذي أبقاها عمياء عن الحقيقة طوال هذا الوقت؟

لا.. ليس غباءً.. إنه نوع من الحماية الذاتية.. فهي لم تجرؤ على أن تترك نفسها لتعرف بما تشعر به نحو غاي.. لأن حبه بدون أمل.. وعرفت هذا على الفور.. كان خارج إطار تجاربها، حتى أن مجرد كونهما معاً كانت فكرة مضحكة.

وكما قال لها منذ البداية.. إنها فتاة فلاحة، إن لم تكن في واقعها، فبروحها بالتأكيد.. وهو.. هو رجل يحتاج إلى الإثارة والإشراق في عالم لم تكن تتصوره يوماً.. عالم تسكنه نساء جميلات ذكيات محنكات، مثل وبندي..

جلست آيرين تدفع الغطاء عنها.. لن يكون سهلاً الاستمرار في التظاهر أكثر من هذا.. ولفت ذراعيها حول ركبتيها.. لكن معانقة غاي لها بين ذراعيه، حركة لا تنم أبداً عن عرفانه بالجميل.. وهذا ما أجبرها على مواجهة الحقيقة.

أغمضت عينيها وأسندت خدها على ركبتيها المرفوعتين. لقد سبق أن قالت لجوفري الحقيقة، وبنفس الأسلوب تقريباً.

قالت بلطف:

ـ تعجبني كثيراً.. وأنا ممتنة لصداقتك، لكنني لا أحبك كما تحبني.. وأشك في أن أتمكن يوماً.

أرسلت الذكرى ألماً كنصل السكين إلى قلبها.. مسكين جوفري.. أدركت ولأول مرة ما أحسّ به.. كان يحبها مع علمه بعدم جدوى هذا الحب.. تماماً كما تعرف الآن أن لا مستقبل لحبها مع غاي.

الفارق الوحيد أنها لم تقل لغاي إنها تحبه.. وشكراً لله على منته هذه، وابتسمت لنفسها بمرارة.. على الأقل، لم تكشف روحها أمامه تماماً.

تصاعدت تغريدة عصفورٍ ناعمةٍ في هواء الصباح الباكر.. فأنزلت آيرين ساقيها إلى الأرض، تسير إلى النافذة، وتفتح الألواح الخشبية. كانت الشمس في منتصف طلوعها إلى السماء.. حمراءً نارية، جميلةً في

إشراقها..

كان العالم ساكناً، جديداً، من حولها.. إنه صباح جميل من النوع الذي يبدو كل شيء فيه ممكناً.. فكرت بابتسامة قلقة: حسناً.. تقريباً كل شيء.. إذا حافظ غاي على وعده.. فستتمكن من مساعدته على التحول إلى الشفاء.

لن يماثل هذا حصولها على حبه. لكنه على الأقل، سيملأ قلبها المعذب بقليل من الدفء.

كان المنزل صامتاً عندما حاولت التسلل على رؤوس أصابع قدميها، نازلة السلم. كان باب غرفة غاي مفتوحاً جزئياً.. لكنها مدركة بأنه نائم.. فهو لا يستيقظ عادة إلى أن تصبح الشمس مرتفعة، وهو يستخدم هذه الطريقة لاختصار يومه.

تحرك أنفها متنشقاً رائحة الجو وهي تتجه إلى المطبخ.. إنه عابق برائحة القهوة.. هل نسيت أن تنتزع سلك الإبريق من الكهرباء؟

ـ صباح الخير.

شهقت آبرين، ووضعت يدها على صدرها. كان غاي جالساً في الطرف البعيد من المطبخ، يبتسم لها من فوق حافة فنجان قهوة. قالت مع ضحكة خفيفة: يا إلهي.. لقد أجفلتني!

ـ آسف.. كان يجب أن أناديك حين سمعت وقع قدميك.

أدار كرسيه نحو الأبواب الزجاجية المطلة على النراس.

ـ لكنني كنت أراقب العصافير في الحديقة.. ما نوعها.. دوري؟

ـ أظن هذا.

ضحك:

ـ وهل فعلت كل هذا؟

ـ كل ماذا؟

أشار بيده إلى صفوف الأعشاب المطيبة والزهور المرتبة في الحديقة.

فابتسمت:

ـ تعني تعشيب الأرض؟

ـ يبدو وكأنك قمت بمعجزة هناك.

ضحكت آبرين:

ـ ما من معجزة.. بل الكثير من العمل الشاق.

مال إلى الأمام في كرسيه:

ـ هل هذه ورود التي أراها على طول الجدار الخلفي؟

ـ أجل.. ورود برّية، أظن.. لا بد من هذا لكونها نجت في تلك الغابة الرهيبة من الأعشاب.

ابتسم: أي شيء سيعيش.. ويدك ترعاه.

التقت عيونهما.. لكنها أبعدت عينيها بعد لحظة:

ـ هل هذه.. هذه قهوة التي أشم رائحتها؟

ضحك وحرك كرسيه إلى رف المغسلة: أجل.. أتريدين بعضاً منها؟

ـ أجل.. أرجوك.

راقبته وهو يصب القهوة لها، وبعيد ملء فنجانه.. صنع القهوة أمر بسيط.. ومن السخف الإحساس بمثل هذه السعادة. لكن بالنسبة لغاي.. إنها معجزة.. لم يحاول في الأسابيع التي أمضاها هنا حتى أن يسخن الماء..

ابتسمت وهي تأخذ الفنجان منه.. تقول وقد تنفست عميقاً:

ـ همم.. رائحتها رائعة فعلاً.

رائعة تماماً، كما يبدو هو، كان يرتدي كنزة رمادية قديمة، كان شعره الأسود مجعداً مبللاً عند مؤخرة عنقه.. لا شك أنه استحم، مستخدماً الرشاش اليدوي.. ربما كان عملاً أخرقاً، لكنه رفض مساعدتها منذ البداية.. وهذا أفضل لها، بعد التفكير بالأمر الآن..

سألها: ألا تعجبك؟

أجفلت، فأكمل:

ـ القهوة..

هزت رأسها: أنا.. أنا.. كنت أفكر بشيء آخر.

نفخت في السائل الساخن ثم ارتشفت منه.

ـ القهوة رائعة.

ابتسم:

ـ القهوة من الأشياء القليلة التي أبرع بها في المطبخ. وربما لأن كل ما يحتاجه المرء، هو الماء وملعقة، وبعض الصبر.

ابتسمت بدورها:

ـ أنت إذن لست ممن يحبون صنع طعام غريب؟

ـ أنا لست من النوع الذي كان له يوماً مطبخ فالحياة على حلبات السباق تتطلب عيشاً في الفنادق.

وحاولت آيرين أن لا تظهر دهشتها. ثم يذكر غاي السباق منذ أن شرح له موريت خطورة إصابته.. وسألت:

ـ وبعيداً عن الحليات؟

هز كتفيه، وهو يضع السكر في قهوته:

ـ أملك شقة في نيويورك، ومكاناً صغيراً في سويسرا.. وكلاهما مع الخدمة.

وضحك.. جذبت آيرين كرسياً لتجلس قرب الطاولة.

ـ نيويورك وسويسرا.. هه؟ يبدو هذا رائعاً.

هز غاي رأسه:

ـ أجل.. شقة نيويورك تطل على «سنترال بارك» والكوخ السويسري خارج «داڤوس» تماماً.. أذهب إلى هناك للتزلج كلما..

تلاشت ابتسامته.. وانخلع قلب آيرين تعاطفاً معه.. لكن شيئاً ما منعها أن تقدم له المواساة.. عليه أن يجد طريقه بنفسه.. وحرك فكيه بطريقة أعلنت لها بأنه سيفعل.. انتظر لحظات، ثم تنحنح:

ـ إذن.. هل نمت جيداً؟

ـ أجل.. وأنت؟

تردد، ثم هز رأسه: لا.. ليس كثيراً.

ـ أكنت مريضاً؟ كان يجب أن تستدعيني غاي.. كنت سوف..

ـ لم أكن مريضاً آيرين.

ابتسمت بسرعة: أوه.. ظننت..

ـ أمضيت الليل أفكر كم كنت وغداً صعب المراس.

ـ غاي..

ـ كنت نذلاً.. منذ اليوم الأول.

ابتسمت بدفء: حسناً.. إذا كنت تصرّ على هذا.

ضحك.. ثم تجهم:

ـ كنتِ على علمٍ إذن بأنك تفتشين عن المتاعب.. مع ذلك أكملتِ طريقك.

ـ قلت لك.. إننا نساعد بعضنا.. كنت أحتاج إلى عمل، و..

ـ لماذا بقيت؟ أعني لن يتحملَ أحدٌ القذارة التي صدرت مني في الأسابيع الماضية.

لأنني أحبك!

مرت الكلمات بسرعة في رأسها، حتى أنها خشيت أن تكون قد تلفظتها عالياً. لكنه كان لا يزال يراقبها.. فدفعت كرسيها إلى الوراء، ووقفت:

ـ أعترف أنني اقتربت جداً من قول وداعاً.. أكثر من مرة. لكنني قررت أن الاتفاق اتفاق.

ـ وماذا عن وبندي؟

ـ وبندي؟

ـ هل سمعت عنها شيئاً؟

وصلت منها بطاقة بريدية تقول: «مشغولة مشغولة جداً.. حبي لغاي» لكنها لا تستطيع قول هذا له.. فهو بسؤاله عنها أعطى الدليل أنه يفكر بها.

استدارت آيرين لتشغل نفسها عند المغسلة وقالت:

ـ أجل.. كتبت عدة مرات.. كان يجب أن أحتفظ برسائلها.. تقول إنها تعمل بجهد و.. ترسل لك حبها.

ساد صمت بينهما، ثم تنحنح:

ـ اسمعي.. حول ما حدث ليلة أمس..

أغمضت عينيها وقاطعته:

ـ لقد انجرفنا.. هذا كل شيء.. أعني.. كنا متكدرين، و.. و.. وما قلته ليلة أمس عن الامتنان.. أمر معقول لذا.. دعنا لا نتكلم عن

الموضوع.. اتفقنا؟

تعاظم الصمت في الغرفة مجدداً، ثم أطلق أنفاسه: اتفقنا.

ـ ماذا ترغب أن تفعل اليوم؟ فكرت بتناول الغداء على التراس.. أما العشاء الليلة.. سوف..

ضحك غاي، بددت رنة ضحكته الارتباك الذي تسلل بينهما منذ لحظات.

ـ ماذا تحاولين أن تفعلي بي سيدتي؟ آكل وأنام ثم آكل المزيد.. سأكون حذراً حتى لا أصبح كالجبل..

ابتسمت: حوت على الشاطىء.. هه؟

ضحك بنعومة:

ـ هذا صحيح.. أنا لا أتمرن.. كل ما أفعله هو تناول الطعام.. وإلى أن يخرجني موريت من هذه الكرسي.. سيكون وزني خمسمائة باوند.

ـ لا أظن أن شركات المحافظة على الوزن وصلت إلى هذا الجزء من فرنسا.. ولو ذهبت إلى «غراس» أطلب خبزاً منخفض الحراريات، لأطلقوا النار عليّ.

ـ أتفضلين إذن أن تراقبيني وأنا أتحول إلى حوت..؟

ـ حسن جداً.. لقد أقنعتني.. سأذهب إلى البلدة لأشتري بعض علب «التونا» وكل ما أجده من..

تغيرت نظرة غاي، فقالت: ليست فكرة جيدة؟

قال برجفة درامية:

ـ هذا الحوت.. عاش على علب «التونا» بما يكفي لأن يقرر عدم تناولها إلا عند احتضاره.

أسندت آيرين نفسها على رف المغسلة، وكتفت يديها: أشك في هذا.

قال بوجه صارم:

ـ لقد طلبَ مني أن أؤلف كتاب طبخ وأسميه: طرق ريتشاردز العشرة آلاف وواحدة، في تقديم التونا.. لقد فتحت علباً منها بما يزيد عن حاجتي العمر كله.

ـ سأسألك السؤال البديهي.. لماذا؟

ارتشف من قهوته وهز كتفيه وهو يبتلعها.

ـ التونا المعلبة رخيصة، مغذية، سهلة الاستعمال.. إنها الغذاء المكتمل الذي يلبي احتياجات شخص دون مال..

نظر إليها وهو يضع فنجانه على الطاولة:

ـ وهذا ما كان وصفاً دقيقاً لحالتي.. كنت أوفر كل قرش أكسبه لأضعه في أول سيارة حقيقية لي.

ـ أول سيارة حقيقية لك؟

ضحكت: أجل.. بلون أحمر ناري. تسير بسرعة ثلاثمائة وخمسين ميلاً.. كان يجب أن تريها.. كنت أتسابق وأقفز من ولاية إلى أخرى في سباق الطرق الترابية.. وأقوم برحلات إلى أمكنة لا يعرفها إلا الله..

السباق.. إنه يتكلم عن السباق مجدداً.

ـ وهكذا بدأت؟

هز رأسه:

ـ هكذا بدأ معظم سائقي السباق.. وهي طريقة مكلفة لكن ليست بكلفة الفورمولا وان طبعاً.

ـ هل الحفاظ على سيارة سباق أمر مكلف؟

ضحكت: ما رأيك بعشرة ملايين دولار سنوياً.. آيرين؟

اتسعت عيناها مصدومةً: لسيارة واحدة؟ لا أصدق!

ـ يجب أن تتذكري أن المبلغ للطريق والسيارة معاً.. سباق «الفورمولا وان» فيه أفخم السيارات المعقدة في العالم ويلزم العشرات من الناس لتصبح السيارة سيارة رابحة.. ميكانيكيون، مهندسون، مدير فريق.. كلهم يهتمون ليبدو شخص مثلي لائقاً.

فكرت في نفسها: أنت لن تحتاج لشيء يجعلك تبدو لائقاً.

وارتفع الاحمرار إلى وجه آيرين. ما بالها..؟ سنتفوه بأي كلمة. وبطريقة عفوية دون تفكير.. وماذا سيحل بهذه الصداقة الجديدة بينهما؟

هزت رأسها بحكمة: لم أكن أعرف هذا.

ـ لا يعرف الناس بهذا. فالسائق هو الأبرز، هو من يأخذ كل المجد

ينجذبن إلى المجد، أو الخطر.. لست متأكداً عما يجذبهن إليه تماماً.. وكسائق سباق مثلي، ينتهي به الأمر أحياناً إلى معاملتهن كما نعامل عادة المباهج الأخرى..

- كمن يجد نفسه حراً في دكانٍ للحلوى.. هه؟

ضحك:

- أجل.. أعتقد هذا.. إنهن لا يعنين شيئاً على الإطلاق.. أعني أن النساء مجرد.. مجرد نساء.. وأنا لست فخوراً بأن أعترف بهذا، لكنني أحياناً لا أتذكر أسماءهن.

اشتدت قبضة يديها على المقود.. كانت تعرف ما يفعل.. إنه إطراء مستتر.. يحاول أن يقول لها إن صداقتهما ترتفع إلى ما فوق الرغبات.. ويذكرها أن ما حدث ليلة أمس لن يتكرر.. وقالت بخفة:

- وهذا كثير عليك وعلى غرائز الأمومة عند النساء..!

ابتسم: أعرف أن هذا قد يدهشك.. لكنني أنا أيضاً أحب أمي.

أحست بالتوتر يتلاشى:

- كيف هي؟ لا.. لا تقل لي.. على الأرجح لها مزاج قديس.

- لأنها تحملتني.. أليس كذلك؟ لقد جعلها أبي تعاني وتمر بأوقات صعبة، وليس أنا.. على الأقل كنت أعرف دائماً ما أريد.

- ووالدك لم يكن يعرف؟

هز رأسه:

- كان «ميكانيكي سيارات» حين التقيا.. وإلى أن ولدت، كان يدير متجراً لقطع الغيار.. ودام هذا سنة أو اثنتين، إلى أن سأم وقرر التغيير، فذهب ليعمل لدى وكالة سيارات.

ابتسمت آيرين:

- إذن لأجل هذا أحببت السيارات.

- أعتقد هذا.. مع أن الأمر غريب.. ولم يعجبه يوماً ما كنت أريده أنا.

- أتعني السباق؟

- أجل.. لقد بنيت أول عربة بيدي وأنا في العاشرة.. وجمعت أول

سيارة «بونتياك» لي وأنا في الرابعة عشرة..

رفعت حاجبيها ونظرت إليه:

- الرابعة عشرة؟ كيف حصلت على رخصة قيادة وأنت في هذا السن؟

- ليس في أي مكان أعرفه، وخصوصاً في سانت دياغو حيث كبرت.. ما فعلته هو أنني جمعت السيارة ثم أقنعت شاباً أعرفه ليقودها إلى مكان جبلي معروف.. ثم صعدت وراء المقود، وضغطت دواسة السرعة للنهاية.. يا إلهي، تلك الأشياء الغبية التي يقوم بها الأولاد!

- أولم تضبط أبداً؟

- أبداً، وعبثاً حاولوا القبض عليّ.. وما إن كبرت كفاية، حتى بدأت أدخل مباريات سباق في الطرقات الترابية.. أشياء صغيرة، لكنها كانت كافية لأن أتعلم وأجري اتصالاتي اللازمة. دعمني أبي مادياً لشراء أول سيارة محترمة.. لكنني اضطررت لأن أدبر أمر معظم ثمنها.

ضحكت:

- ودخلت عصر النونا المعلبة.

- بالضبط.. كان من الممكن دخول سباق «فورمولا تري».. ثم الصعود إلى الدرجة الثانية..

- وما هذه؟

- فئة سباق.. مثل «الفورمولا وان» لكن بمحركات أصغر وسيارات أخف.. وماذا عنك يا فتاتي الفلاحة؟ كيف كانت حياتك؟

هزت كتفيها:

- مملة جداً.. ذهبت إلى الكلية إثر رحيل وبندي إلى نيويورك.. وكانت ترسل لنا تلك الرسائل الرائعة عن التصوير وعرض الأزياء، وكنت أقرأها خلال استراحتي من التحضير للامتحانات.

- والآن تعلمين اللغة الفرنسية.. هه؟ لتلاميذ «الهاي سكول»؟ لكنك لا تحبين عملك كثيراً.

نظرت إليه بدهشة:

- لكنني أحبه كثيراً، من أين أتتك هذه الفكرة؟

- لقد قلت إن التعليم ممل.

ـ لا . . لم أقصد هذا بالضبط . . عنيت فقط . . أن ما أفعله في حياتي ممل . . بالمقارنة . . مع ما تفعله ويندي .

رد بسرعة : لا تقارني نفسك بها .

ملأت المرارة فمها : بل يجب عليّ أن أفعل . .

أسند رأسه على المقعد ، ونظر من النافذة :

ـ أنت لا تشبهينها أبداً . . إنها تقوم بأعمال شائنة لا تطاق . . ويتغاضى الرجال عما تفعله . . أما أنت . .

انطلق زمور قويّ خلفهما ، ونظرت إلى المرآة :

ـ انظر . . نحن الآن في غرايس . . يجب أن أجد مكاناً لأوقف فيه السيارة .

هز رأسه : حسناً . . سأبدأ البحث .

ـ فكرة جيدة .

وجدته حلاً أفضل بكثير من الاستماع إليه يتفوه بأشياء تعرفها جيداً . ويندي جميلة ، مثيرة ، وهي التي أدارت له ظهرها حين كان يحتاج إليها . ورغم هذا فهي تشكل جزءاً هاماً من حياته .

* * *

٦ ـ حطام الأمل

سمعت آيرين الكثير عن النظريات ، كما الجميع ، حول العلاقة الغامضة بين الفكر والجسد وراقبت الآن غاي وهو يمسك زمام أمور حياته بيده مجدداً . إنها ترى التغيير في غاي أمام عينيها ، من رجل وصل درجة السلبية في وجه الكارثة ، إلى شخص مصمم على تشكيل مستقبله بيده .

إذا كان من الممكن أن يدفع المرء بنفسه وبإرادته ليصبح أفضل حالاً . . فإن غاي قادر على هذا . . كانت أول محطة لهما في «غرايس» عند الصيدلي ، حيث طلب زجاجات من الڤيتامينات والبروتينات ، وقالت آيرين مرتجفة وهي تنظر من فوق كتفه :

ـ أقراص عشبة البحر ؟

ابتسم : إذا كنت تظنين بأنها سيئة الطعم ، فتذوقيها .

قطب حاجبيه في الشارع وهو ينظر إلى واجهات المحلات :

ـ لا بد من وجود أدوات رياضية في محل ما . أترينها ؟

ـ أجل . . هناك واحد عند الزاوية . . لكن . .

ـ فلنذهب إذن . .

انتفخت عضلات ساعده العليا وهو يدير إطارات الكرسي بسرعة في الشارع . . وماذا يبغي رجل مقعد مثل غاي من محل واجهته مليئة بكرات التنس والمضارب وعصى الغولف ، ومعدات الغطس ؟

وكأنه قرأ أفكارها :

ـ أريد أثقالاً . . أثقالاً للمعصمين ، وأثقالاً لتمرين الذراعين . أيمكن أن تترجمي هذا أرجوك ؟

وفعلت . . بعد برهة قصيرة، كان صاحب المحل يضع علبة ضخمة ثقيلة في صندوق السيارة . . وسألت آيرين تبتسم : وماذا بعد؟

ضحك :

ـ الغداء . . لقد أثرت شهيتي بمجرد التفكير باستخدام هذه الأثقال .

تناولا الغداء على تراس هادىء تحت غصون شجرة مزهرة جميلة، ولم يقبل غاي بلائحة الطعام الموجودة بل طلب لهما طعاماً يتكبر وصل حد العجرفة . . لكن هذا ملأ قلبها سعادة . . لقد عاد غاي ريتشاردز القديم .

قال للساقي :

ـ حساء السمك، وفيليه سمك مع السلطة . .

ـ حساء سمك، وفيليه . . هه؟ كنت أظنك لا تجيد الفرنسية .

ضحك :

ـ ما أعرفه هو «لائحة الطعام» ولقد زرت معظم بلدان العالم وأستطيع إطعام نفسي بأية لغة كانت، حيث يكون السباق فيها . . حساء السمك هنا مميز . . هذا إذا كنتِ تحبين الثوم؟

ـ الثوم هو حبي السري .

ـ كان يجب أن أعرف أنك امرأة ذوّاقة .

وصل الساقي بقصاع الحساء وسلة من الخبز الطازج فقال غاي يحثها :

ـ هيا . . كلي . . ستحتاجين إلى قواك . . أمامنا الكثير من التسوّق بعد .

اشترى غاي من محل للكتب عند الزاوية جريدة بالإنكليزية وبعض المجلات . . تدور جميعها حول موضوع علاج الإصابات الرياضية . اثنتان منها بالإنكليزية والباقي بالفرنسية . وسأل :

ـ هل يزعجك لو طلبت منك قراءتها لي؟

ـ لا . . أبداً .

ثم أدار كرسيه إلى رف مليء بالقصص وسألها :

ـ ماذا تحبين، القصص الغرامية؟ الغوامض، التاريخية؟

ماكدونالد منشورة حتى الآن . .

قاطعها : مدي يديك .

حين فعلت وقعت عليهما رزمةً من روايات ماكدونالد . . فنقلت نظرها من عينيه نحو الكتب بذهول :

ـ غاي . . ماذا تفعل . .

ـ إنها إجازة صيف أستاذتي . . وقد ترغبين في الاسترخاء والتمتع بالقراءة .

ملأ غاي من محل صغير للمعلبات، سلة خشب بعلب الكافيار والانشوا، البسكويت، الجبن، الشوكولا، وزجاجات المرطبات . . فاعترضت آيرين :

ـ لن نستطيع أكل كل هذا .

لكنه تجاوز احتجاجها وقال :

ـ هذه لساعات الكوكتيل فقط .

ـ لكن ليس لدينا . .

ـ إذن يجب أن يكون لنا ساعات كوكتيل . . فأنا سأضطر إلى المحافظة على الكالوريات عند مباشرتي ببرنامج التمرين .

بدأ العمل بالبرنامج في اليوم التالي . . أذهلتها شدة التمرين في البداية، ثم أخافتها . . كان يعمل مرتين في اليوم صباحاً ومساءً، بالأثقال التي اشتراها من «غرابس» . . أول مرة سمعته يناوه على التراس، ركضت إلى الخارج، معتقدة أنه وقع عن كرسيه .

لكنه كان يجلس عارياً دون قميصه تحت الشمس القاسية . . يرفع الأثقال فوق رأسه عالياً، وعضلات ذراعيه بارزة بينما العرق يجري على جسده .

وشهق : مرحباً . . جئتِ تراقبين جلسات التعذيب؟

وهذا ما بدا لها بالضبط .

ـ المكان حارّ جداً هنا . . لماذا لا تعمل في الداخل؟

ـ العرق جيدٌ لي .

ضحكت : أنت سخيف .

ـ ربما . . لكنني أحب الإحساس بالشمس .

تلاشت ابتسامتها ، ربما كان هذا صحيحاً ، فبشرته السمراء مبتلة بالعرق ، وشعره مبلل أيضاً . أشاحت وجهها بسرعة . . وأحست بحرارة شوقها المتعاظمة تتحرك في شرايينها . . وقالت مقطوعة الأنفاس :

ـ حسن إذن . . تمتع بوقتك .

لحقت ضحكته بها إلى الداخل . .

ـ لا تستطيعين تحمل رؤية رجل يتعذب؟ هه؟

لوحت له ، وكأنها توافق ، فهذا أسلم بكثير من أن تتركه يشك بسبب أعمق . . فالحقيقة واضحة وبسيطة ، فإن مشاهدته يرفع الأثقال ، ويلمع جسده تحت الشمس المحرقة ، خطف أنفاسها .

أخافها عمق مشاعرها . . وما أخافها أكثر أنه قد يقرأ هذا في عينيها . . لقد أوضح مشاعره ، وآخر شيء تودّ سماعه هو أن يشرح امتنانه لها مرة أخرى .

توجها مرتين إلى نيس ليفحص الدكتور موريث ساقيه . . بذل الجرّاح في الزيارة الثانية رباط ركبة غاي برباط أخف بكثير ، وأصغر حجماً وسمح له باستخدام العكازتين . لكن ليس لوقت طويل إذ لا يجب أن يجهد نفسه كثيراً .

أكد غاي للطبيب أنه لن يتعبها . لكن آيرين رأت اتجاه فكه وأدركت فوراً أن الكرسي المتحرك تشهد آخر أيامها . لكن حين رأته ممدداً على ظهره على أرض التراس يتلوى وجهه ألماً وهو يرفع ركبته في الهواء ، ويبقيها مرفوعةً وهو يعد للعشرة ، ثم يخفضها ثانية ، قررت أن الوقت قد حان لتتكلم :

ـ ماذا تحاول أن تفعل لنفسك غاي ريتشاردز؟ هذه الركبة . .

لكنه لم يكن يصغي إليها . . بل كان يرفع ركبته مجدداً ويمدها ببطء بأنفاس معذبة والعرق ينصبب من وجهه ، وساقه ترتجف حين ينزلها .

فقد صوتها كل الغضب :

ـ غاي . . لأجل الله . . أرجوك . . ستؤذي نفسك . . ستمزق الرباط العضلي مرة أخرى . . أو . .

ـ أعرف ما أفعل . . لقد قرأنا كل تلك الكتب معاً ، أتذكرين؟ لا كسب دون تعب . . على أي حال ، لست جديداً في هذا ، لقد أصبت من قبل .

نظرت إلى ركبته ، إلى الجرح الذي لا زال حباً فوق صابونة الركبة . . وقالت :

ـ لكن لم تكن إصابة مماثلة لهذه .

ـ لا . . لم تكن كهذه . . لكنني أستعيد عافيتي مع الوقت ، وأنا مصمم على هذا الآن .

ثم تأوه مجدداً وهو يرفع ساقه : واحد ، اثنان ، ثلاثة . .

في الواقع إنها لم تكن قلقة على جسده بقدر قلقها على معنوياته . فهو مصمم على استعادة صحته تماماً ، ليعود إلى الحياة التي يحبها . . فماذا لو لم يستطع؟ ماذا لو كان موريث على حق؟ هل سيكون قوياً بما يكفي ليتقبل هذا؟ أم أنه سيرمي بنفسه في حزنٍ يائس أسوأ من الذي سبق أن عاناه؟

خرجا بعد ظهر يوم متكاسل بالسيارة إلى التلال مع غداء نزهة . وانتظرت آيرين إلى أن استرخى غاي ، متمدداً على العشب ، ينظر إلى الغيوم المارة فوق الرؤوس . . وتنحنحت :

ـ غاي . . ؟ هل فكرت ملياً بما ستفعله بعد فك الجبص؟

نظر إليها :

ـ سأحمم ساقي أولاً . . أتعرفين كيف أحس وأنا لا . .

ابتسمت تقاطعه : لم أعن هذا حقاً .

أدار وجهه لها ينظر إلى السماء مجدداً : أعرف ما تعنينه آيرين . .

انقلب على جانبه ببطء وفور ، ثم كافح بجهد ليجلس :

ـ وأظنك تعرفين الرد . . سأعود إلى السباق ثانية . . ستنتزع الجبيرة بعد يومين ، وسيكون هنالك وقت طويل حتى يحين موعد سباق الجائزة الأولى الإيطالي . وأستطيع الانضمام إلى فريقي لأتدرب وأستعد ثانية .

أمسك عكازيه ووقف ، فوقفت آيرين بدورها تسير إلى جانبه باتجاه السيارة : هل أنت . . واثق؟

توقف واستدار نحوها:

ـ متأكد من ماذا؟ واثق أنني أستطيع اللحاق بالسباق في الوقت المحدد، أم أنني لن أسابق أبداً؟

ـ غاي أرجوك.. أنا لا أحاول إحباط شيء.. الأمر فقط أنني..

ـ قلت لك من قبل، ابتعادي عن الحلبة واقفاً أمر، والزحف مبتعداً أمر آخر، وأنت الوحيدة التي يجب عليها فهم هذا.

ـ أنا لا أفهم.. هل الحصول على عمل آخر هو الذي يقلقك؟ لقد قلت لي بنفسك كم شخصاً يلزم لتحضير سيارة للسباق..

ابتسم لها:

ـ أنا لست قلقاً حول إيجادي عملاً أبداً.. أريد شيئاً بكل تأكيد أعمل به لما تبقى من حياتي.. فأنا لست بالرجل الذي يستطيع الجلوس ليلاحظ الزهور وهي تكبر.. لكنني لست بحاجة للمال... وقد سبق أن قمت بالكثير من السباقات، أكثر مما يمكن أن أتصور عدده.

ـ إذن لماذا..؟

تلاشت ابتسامته:

ـ ألست أنتِ من تكلم عن عدم الانهزام؟

ـ أنت تكرر كلامي غاي.. فالاعتراف بأنك لا تستطيع القيام بشيء ما ليس هزيمة.. إنه..

ـ دعينا لا نتجادل في الموضوع. حين يبدأ رجل حياة جديدة، يرغب أن يبدأها حسب شروطه هو.. أتفهمين هذا؟

هزت آبرين رأسها:

ـ لا.. لا أفهم.. ماذا يهم..؟

ضاق فمه، والتقت عيناه بعينيها: لا يرغب أحد بالشفقة.

استدار عنها وأسرع على عكازيه نحو السيارة.

ـ ما من أحد سيعرض على رجل مثلك عملاً بدافع الشفقة.. غاي.. أنت..

أذلت غضبه لأول مرة منذ أسابيع، وصاح بفتح باب السيارة بقوة:

ـ اللعنة.. توقفي عن هذا الموضوع.. أوكي؟

بقي صامتاً ما تبقى من ذلك اليوم.. أملت آبرين أن يتغير مزاجه مع الصباح التالي، لكنه كان متوتراً وقت الإفطار. وراقبته عبر الأبواب الزجاجية وهو يسير إلى التراس.. كان النهار يوماً من أيام آب المشهور بها ذلك الإقليم، والسماء زرقاء مكتملة.. الشمس كتلة ذهبية مشرقة.

حانت الساعة المخصصة لأثقال غاي ثم فاتت.. وهو لا يزال يرفع ويشد.. ربع ساعة، ثم عشرين.. أخيراً وبعد أن شاهدت بشرته تشحب، وقميصه الرياضي، كتلة رمادية مبللة.. خرجت من الكوخ، وقالت بهدوء:

ـ حسن جداً.. هذا يكفي!

لم ينظر إليها، ورفع ساعديه وأنزلهما مجدداً. وتمتم:

ـ لا مكسب.. لا مكسب..

خطت لتقف أمامه:

ـ دون تعب.. أجل هذه قصتك.. أما قصتي فهي أنك ستنهار لو دفعت نفسك أكثر من هذا.. فالحرارة مرتفعة جداً هنا.. و..

ـ ادخلي.. هيا.. فقط..

عرفت أنه من غير المجدي محاولة انتزاع الأثقال منه.. إنها ثقيلة وغاي قوي.. وهذا مزيج سيهزمها حتماً.. لكنها أمسكت بمعصميه.. فضاقت عيناه: ماذا..

ـ ضع الأثقال من يدك!

ـ آبرين.. اللعنة..

ـ ضعها من يدك غاي..!

نظر إليها حانقاً ثم نفض يدها عنه، وقال: حسن جداً..

ووضع الأثقال على الطاولة: ما سبب كل هذا؟

ـ العقل.. هذا هو السبب!

تجاهلت احتجاجاته وفكت مكبح الكرسي وجرته إلى المطبخ ثم سكبت له كوب عصير فاكهة.

ـ هاك، تفضل.

ـ لا أريده.. ولا أحب أن يعاملني أحد وكأنني طفل نعامين.

ويحتل المرتبة الأولى . .

لامست شفتيها بلسانها :

- إذن . . متكره أنت أخذ الدور الأخير في الطريق؟ لنقل المدير . . أو . .

ابتسم لها بلطف :

- آه . . يعمل دماغ السيدة جاهداً . . إذا كنت تسألينني عما إذا كنت قادراً على العيش دون القيادة، فالرد هو نعم . . أستطيع . . لكن، إذا كنت تسألينني إذا كنت مستعداً للتخلي عن القيادة . . فالرد «لا» . . ليس بعد . . لقد عنيت كل كلمة قلتها لموريت . . فهو ليس من يقرر . .

خبت ابتسامتها : لكنه قال . .

- أعرف ما قال . . لكنه لم يكن سائقاً يوماً ما . . يلزم قيادة سيارات السباق الشجاعة والمهارة والعضلات القوية . . هل تفهمين ما أقول؟

- أجل . . وأتمنى أن تكون على حق . . لكنني لا أظن أنه يجب . . أعني . . إذا كنت تتوقع أن لا . .

- آيرين، أصغي إليّ . . لطالما كنت أعرف أنني سأضطر إلى التوقف عن السباق آجلاً أم عاجلاً . يدرك الجميع هذا . . ويفكر المرء بهذا بعد سباق رديء أو حادثة ما ويفكر بها بعد سباق جيد كذلك . . عندها يتساءل المرء كم بقي من سباقات له .

حرك كرسيه نحوها وأمسك بيديها :

- يختلف تماماً الابتعاد عن السباق، عن إبعاد المرء عنه وهو على كرسي متحرك . . أتفهمين هذا؟

هزت رأسها : أجل .

اشتدت يده على يدها :

- وعدت ليلة أمس . . سيدة شابة أن أقاوم . . وسأفعل ما بوسعي .

- لم أكن أقصد . .

- أعرف ما كنت تقصدين . وأنا لن أبني قصوراً في الهواء . . أعدك . .

نظرت إليه بعجز، ثم هزت برأسها فتابع :

- حسن إذن، ماذا عن البداية؟ وعدتِ أن تساعديني، أتذكرين؟

ابتسمت آيرين : طبعاً . . أخبرني فقط كيف؟

- خذيني إلى «غرابس» .

- إلى غرابس؟

تذكرت كم عانت بالأمس لإقناعه بالخروج إلى الشرفة دون جدوى . . وضحكت :

- أجل . . إلى غرابس . . أيمكن أن تفعلي هذا لأجلي؟

- سأفعل أي شيء لأجلك .

وأشاحت بوجهها عنه بسرعة قبل أن يتمكن من قراءة الحقيقة في عينيها .

أخذ غاي يصفر، وهما منطلقان على الطريق الممتدة أمامهما . . نظرت آيرين إليه، وابتسمت لنفسها . . إنه يبدو رائعاً . . يضج بالحيوية، إنه وسيم جداً . .

استدار نحوها : بم تفكرين؟

امتلأ خداها باللون الأحمر ونظرت بسرعة إلى الطريق .

- لا شيء .

- لماذا الاحمرار إذن؟

- ما من احمرار . . كنت أفكر فقط أنك تبدو رائعاً، صحيح الجسم، أعني . .

- مبتهج . . محنك . . هل هذه هي الكلمات التي تبحثين عنها؟

رفعت حاجبيها : يبدو صعباً عليك إظهار تواضعك . .

ضحك مرجعاً رأسه إلى الوراء :

- هذا بلا شك بسبب الخف الذي ألبسه . . فالنساء لا يستطعن مقاومة رجل بفردة حذاء واحدة . . مما يُخرج ما في أنفسهن من عاطفة أمومة .

نظرت إليه بدهشة . . هل يمزح حقاً حول ساقه المكسورة؟ هذا لا شك يوم المعجزات . .

- لم أكن أعلم بمعرفتك عن غرائز الأمومة عند النساء .

أدار رأسه نحوها :

- معرفة النساء من أهم الأمور التي تحدث لسائق السباق . هناك من

- إذن لا تتصرف كطفل . .

ومدت يدها بالكوب مجدداً:

- اشرب هذا قبل أن تنهار من الحرارة والإرهاق.

انتزع الكوب من يدها، وقال بحنق:

- أنا لست قريباً من الانهيار بعد، لا زلت أعرق . . ولو أصابني إرهاق حرارة لكنت . .

- اللعنة عليك غاي ريتشاردز . . اشرب العصير قبل أن أجبرك على شربه.

حدقا ببعضهما البعض . . ثم ارتفعت ابتسامة سريعة إلى فمه:

- ستفعلين هذا . . أليس كذلك؟

حين لم ترد تنهد:

- ما الفائدة . . إذا كان هذا ما يجعل السيدة سعيدة.

راقبته يشرب العصير المثلج في سلسلة من الجرعات المتواصلة . . وحين انتهى، مسح فمه بظهر يده، وأعاد لها الكوب، فقالت ترميه بمنشفة صغيرة:

- والآن اخلع هذا القميص، وجفف نفسك.

خلع قميصه ووضع المنشفة على كتفيه: راضية؟

- لا . . أريد أن أعرف لماذا تفعل هذا؟

- أفعل ماذا؟ أعمل جاهداً؟ كنت أفعل هذا كل صباح منذ . .

- لا تجرؤ على الاستخفاف بي . . أنت تقتل نفسك . . لم تقل كلمة وقت الفطور، أو العشاء ليلة أمس.

نظرت إلى عينيه، ولان صوتها فجأة:

- غاي . . أرجوك . . قل ماذا هناك؟

ساد صمت، ثم نخطاها ليأخذ عكازيه من على الجدار:

- لا شيء . . أيجب أن يكون هناك شيء لرجل حتى . . . ؟

أخذ يقفز على عكازيه نحو الممر البارد في الداخل، فلحقت به، تقول:

- لا تفعل هذا . . لن أدعك.

دخل غرفة الجلوس، وجلس على الصوفا، ووضع عكازيه جانباً:

- لست أدري عما تتكلمين.

- لن أدعك تبعدني عنك مرة أخرى.

تراجعت شفتاه عن أسنانه:

- حقاً؟ . . وماذا تقترحين أن تفعلي حيال هذا؟

تنفست بعمق:

- أنا . . سأتركك هنا . . سأخرج من هذا الباب وأسافر إلى نيس.

ضاقت عيناه: وهل هذا صحيح؟

ابتلعت ريقها:

- أجل . . إذا عدت للتقوقع داخل نفسك، سوف . .

قفزت مجفلة وهو يضرب يده على ذراع الصوفا:

- أنا لا أفعل هذا.

- إذن ماذا تفعل؟

وركعت إلى جانبه . . فنظر إليها، وفكه مشدود . . ثم وبعد أن كادت تيأس من الحصول على رد، زفر أنفاسه بحدة، وقال بصوت منخفض أستعد

هزت رأسها: أنا لا

- أستعد لزيارة الغد، للدكتور موريت . . سنتزع الجبيرة في الغد . . هل نسيت؟

وهل نسيت؟

ارتفعت عيناه إليها، وما رأته فيهما جعل قلبها يتوقف . . لم تكن تعرف ما إذا كانت تريد أن تضحك أو تبكي . . كيف يمكن أن تنسى . . إنه الشيء الوحيد الذي تفكر به . . تحس بالقلق في كل مرة تنظر فيها إليه، وتخشى أن يأمل الكثير من نفسه حين يفحص موريت الجبيرة . . لأنه يأمل أن يكون قوياً جداً وسريعاً جداً.

أدركت فجأة أنه خائف . والطريقة الوحيدة التي يعرفها ليقاوم بها خوفه هو إرهاق جسده . . وفكره.

وضعت يدها على يده، وهمست:

- أوه غاي . سيكون كل شيء على ما يرام. وسترى.

أمسكت يده بدها بلذة . وقال بصوت منخفض:

- هل سيكون . ؟ هذا ما أستمر في قوله لنفسي . لكن . .

مالت إلى الأمام تضع يدها الأخرى على خده، تدير وجهه إليها:

- أجل . بالطبع . لقد تقدمت كثيراً، بل فعلت معجزة . .

- أمضيت ليلة أمس أقول هذا لنفسي . ومع الفجر كنت أجادل آخر من نفسي كان يسخر مني ويقول: بل ستكون على أفضل ما يرام.

- ولماذا لم توقظني؟ لصنعت لنا بعض الشاي، ونكلمنا . .

ابتسم غاي: كدت أفعل . لكن . .

- لكن؟

تغيرت ابتسامته . . ورفع يدها إلى شفتيه، قال وأنفاسه الحارة تلفح يدها: ألست ممن يطلب المساعدة أبداً. أتفهمين؟»

لم تفهم . . أو على الأقل ليس فوراً. ثم انقلب قلبها . وفكرت . . أجل، أجل، إنها تفهم . . غاي رجل أمضى حياته في خطر، في رياضة خطيرة. وقد تحول الآن إلى أقل من رجل . . وهذا ما أحست به منذ البداية، بعد الحادثة تماماً . . ولقد تغلب على هذا الإحساس في الأسابيع الماضية . . لكنه الآن، ومع اقتراب لحظة الحقيقة. عاد الخوف الرهيب الذي منعه تقريباً عن التحرك، ليعذبه مجدداً.

إنه يحتاج إلى دليل ليستعيد توازنه، دليل لا يمكن أن يشك به أبداً . . لا تعطيه له سوى امرأة. ولهذا بقي مستيقظاً، يفكر بها . . إنها الوحيدة القادرة على دفعه ليمر متجاوزاً آخر العقبات . . تستطيع أن تحتضنه وتمسح العتمة التي تراها في عينيه.

ارتفعت الدموع إلى عينيها ولمعت على رموشها . .

- آيرين . . لم أقصد إيذاءك، أو جعلك تبكين . . ما كان يجب أن أقول شيئاً.

همست بانكسار:

- الأمر ليس هكذا . . أنت . أنت لا تفهم.

مسح شعرها بيده:

- سامحيني حلوتي . . ما كان يجب . .

رفعت رأسها إليه:

- لا شيء لأسامحك من أجله.

توقف الزمن معلقاً بينهما . . ثم تأوه، والتفت ذراعاه حولها وهي تبدو راكعة أمامه، متألقة:

- آيرين . . تعالي إلى هنا . . دعيني فقط . . أضمك.

أجل . . ضمني فقط . . تقدمت إليه، تغمض عينيها.

علقت غصة في حلقها، فوضعت يديها على صدره. كان قلبه يخفق تحت أطراف أصابعها . . إنه جميل جداً . . زادت المشاعر من عتمة عينيه إلى أن أصبحتا بركة في منتصف الليل.

لقد كان لها طوال هذا الصيف . . ضحكا معاً، كافحا معاً . . سارا معاً . . وسينتهي الصيف عما قريب . . سيعود إلى عالمه. أدركت هذا دون سؤال. ستكون ساقاه قويتين، هذه إرادته، وما تريده هي أيضاً.

سيستعيد نفسه، وحين يفعل سيتركها . . ولن يبقى شيء لها لما تبقى من حياتها، ما عدا الذكريات المرة، الحلوة، لصيف قضته تحت أشعة الشمس الحارة مع رجل لن تستطيع أن تنساه أبداً.

رفعت يديها متنهدة عن صدره إلى كتفيه، ثم لفتهما على عنقه . . همست اسمه بنعومة، فجمعها بين ذراعيه بقوة كادت تسرق أنفاسها . . وأحست بقوته تتدفق إليها . .

غابت معه في عناق شغوف، بعد دقيقتين ابتعد عنها فهمست:

- بماذا تفكر؟

ضحك:

- أفكر، أنه بإمكان مصلح العظام أن يفعل ما يشاء بعد ظهر اليوم . . فأنا مستعد له.

بشرت كلماته لها عن عودة ثقته بنفسه، وعن أهمية دورها . . وهذا ما جعل قلبها يدفأ . . وفي نفس الوقت يتحطم.

ستفقد غاي ريتشاردز قريباً . . ستفقده إلى الأبد . .

حين استيقظت آيرين، كانت الغرفة مشرقة بأشعة الشمس.

سرعان ما تلاشت ابتسامتها.. كيف تستطيع أن تواجهه هذا الصباح؟ تركها عناقه بالأمس بلا دفاع.. وكأن مشاعرها أصبحت على وجهها.. وما عليه سوى أن ينظر إليها ليكتشف حقيقة حبها له.

كانت قد باشرت بحمامها حين سمعت غاي ينادبها.. فخفق قلبها، وتسارعت نبضاتها وهي تسمع صوت عكازيه في الطابق الأسفل.

وصاح ثانية: آيرين؟

بقيت صامتة منتظرة.. ومر الوقت إلى أن سمعته يبتعد.. تأخرت في الاستحمام قدر ما تستطيع، ثم في ارتداء ملابسها.. وماذا بعد، لم يبق الكثير من الوقت لرحيلهما إلى نيس حيث موعد غاي مع الطبيب.. ونزلت ببطء السلم.

كان غاي في المطبخ.. ولم يرها. كان يقف في الطرف البعيد من المطبخ، يرتشف فنجان قهوة، وهو ينظر إلى الحديقة وخفق قلبها مجدداً.. وتمنت لو تركض إليه، وترمي بنفسها بين ذراعيه، وتقول له إنها تحبه.. لكنها لا تستطيع.. وتعرف هذا جيداً.

جعلها رنين الهاتف الحاد تقفز.. من يمكن أن يتصل في مثل هذه الساعة؟

مد غاي يده إلى الخلف يلتقط السماعة: ريتشاردز هنا.

أصغى قليلاً، ثم هز رأسه:

- لا.. لا تأتي إلى هنا. سألقاك في نيس.. في الساعة الواحدة. أجل.. في ذلك المقهى على الزاوية.. أجل، هذه هي. لا.. لا.. بالطبع.. سأكون لوحدي ويندي.. موناكو؟ أجل أنا أتشوق لهذا.. ثم إيطاليا؟

تراجعت آيرين مصدومة.. ويندي؟ يتكلم غاي مع ويندي بالهاتف؟ لكنها لم تتصل به طوال تلك الأسابيع.. لم تكن تهتم كفاية لـ..

استدار غاي وهو يعلق السماعة، وتلاقت عيونهما بصمتٍ.. ثم

تمكن من أن يبتسم.

- مرحباً.. عرفت أن رائحة القهوة ستجذبك وتجعلك تتحركين.

كانت ابتسامتها مصطنعة مثل ابتسامته: أجل.. جذبتني.

صبت القهوة لنفسها، وارتشفت القليل.

- إنها جيدة.

وكأن النقاش حول موضوع القهوة هو المهم في هذا الصباح.. لماذا لا تسأله شيئاً عن المخابرة؟ مرت الثواني.. أخيراً نظرت إليه.. ازدادت ابتسامتها تصنعاً هذه المرة أكثر من التي سبقتها:

- إنها المرة الأولى التي يرن فيها جرس الهاتف!

أشاح بعينيه عنها، وأدار لها ظهره:

- أجل.. كان هذا.. هازارد.. اتصلت به في الأسبوع الماضي وقلت له إنني سأكون في نيس اليوم. هذا إذا كان لديه أي مشاكل تقنية يبحثها معي.

أحست بضيق في حلقها: آه.. مارتي هازارد.. طبعاً.

- أجل.. يبدو أنه تجاوز الموعد المقرر للفيلم.. ولم يلتقطوا حتى الآن أية مشاهد عن تحضيرات السباق.. يريدون أن أذهب إلى موناكو في الأسبوع المقبل.

- هل هذا صحيح؟ حسناً، أعتقد إذا أعطاك موريت الإذن...

- بالنسبة لموريت آيرين.. أرسلت بطلب تاكسي ينقلني إلى نيس.. أريد أن أجتاز المحنة لوحدي.. وأرجو أن تفهمي.

ومرر لسانه على شفتيه. استدارت عنه.. لن يكون لها معه يوم آخر.. أوه غاي.. غاي..

قالت بصوت منسرع:

- لست بحاجة لأن تشرح شيئاً.. بدءاً من اليوم، ما تفعله هو من شأنك.

تحركت عكازتيه فوق الأرض.. ووقف خلفها تماماً، ووضع يده على كتفها:

- آيرين.. أريد أن تعرفي أنني حين ينزع الطبيب هذه الجبيرة،

وأتمكن من المضي بحياتي مجدداً..

صمت، بنفث أنفاسه، ثم:

ـ لن أنسى أبداً ما فعلته لي.

ارتجفت الدموع على رموشها، فأبعدتها تقول وهي تبتعد عنه:

ـ أنا مسرورة لتمكني من مساعدتك.

ـ لقد قمت بأكثر من المساعدة.. ما كنت لأعرف كيف كان بإمكاني أن أتخطى هذا الصيف لولاك.

ـ هذا يجعلنا اثنين.. وشكراً للاتفاق الذي عقدناه.. أنا..

ـ أي اتفاق؟

تنفست عميقاً ثم استدارت تواجهه على مضض مجبرة نفسها لتعلو الابتسامة شفتيها:

ـ أعطيتني عملاً كنت أحتاج إليه.. ومكاناً لأقيم فيه.

ابتسم:

ـ هل عدت لهذا؟ أنا لم أصدق هذه القصة منذ البداية. ألا تظنين أن الوقت قد حان لتعترفي بالحقيقة؟

تسارعت نبضاتها ذعراً:

ـ هذه هي الحقيقة.. فأنا..

همس بإقناع:

ـ هيا.. بوحي بالحقيقة.

نظرت آيرين إليه.. فجأة رأت تلك الابتسامة المتعجرفة وقد عادت إليه، تنتشر على وجهه وكأنها عودة لطيفٍ غير مرغوب به.. وانخلع قلبها من مكانه.. وفكرت بمرارة، ها قد عادا إلى نقطة البداية، بعد دورة كاملة.. غاي ريتشاردز القديم، المختبىء منذ أسابيع، عاد.

أطبقت يده على مؤخرة رأسها، وتحركت أصابعه بلطف على شعرها.. وهمس: أخبريني.

يا إلهي.. ماذا يريد مني الآن؟ حتى غاي، لن يستطيع انتزاع كبريائها منها. إنها وليدة دروس عظيمة في هذه الحياة.

فكري.. فكري! لا بد من وجود شيء يمكنك قوله.. شيء تقولينه

له.

أخيراً قالت بصوتٍ مرتجف:

ـ في الواقع.. كان هناك سبب آخر، فأنا لم أخبرك من قبل عن جوفري.. صحيح؟

اختفت ابتسامة غاي.

ـ جوفري؟ ومن هو جوفري؟

تنفست بعمق.

ـ كان.. كان رجلاً أعرفه.. قتل في حادثة سيارة.

ـ قلت في...

ـ أجل.. ورأيت هذا يحدث.. لهذا السبب.. لهذا السبب..

تلاشى صوتها.. حمقاء.. حمقاء! لماذا تقول له هذا؟ صحيح أنها رأت جوفري يموت.. لكنه لم يكن السبب في عرضها المساعدة على غاي.. وقصتها المزيفة ستجعل من ذكرى جوفري، ذكرى رخيصة.. وتحجم بالتالي الحب الذي تكنه لهذا الرجل الواقف أمامها.. أرادت أن تسترجع كلماتها.. لكن بماذا تستبدلها؟ ماذا يمكن أن تقول ليتركها ولو مع قليل من الكرامة؟

اشتدت يد غاي عليها.

ـ وهل هذا سبب انهيارك يوم تصوير مشهد الاصطدام الخدعة؟

ـ أجل.

ـ وسبب عرضك المساعدة لي؟ لأنك.. لأنك لم تتغلبي على ذكرى ذلك الرجل الميت؟

عضت على شفتها السفلى:

ـ أجل.. شيء من هذا.

اسود وجهه إلى أن أصبح كغيمة عاصفة، وامتلأ وجهه بالشمئزاز:

ـ يا إلهي.. لا أدري هل أشعر بالأسى عليك أم..

صمت. فجأة، تعالى صوت زمور يخرق صمت الصباح.. أطلق غاي أنفاسه، وأمسك عكازيه جيداً، ومرّ بها:

ـ هذا هو التاكسي.

ـ غاي؟ هل . . هل ستعود؟

توقف يلتفت إليها:

ـ أجل . . لما يكفي أن آخذ أغراضي.

نظر إليها وكأن هناك شيئاً آخر يريد قوله. ثم استدار بسرعة يقفز بعكازيه فوق السلم: وداعاً آيرين.

وقفت بالباب المفتوح تراقبه يتجه نحو التاكسي. . وابتعدت السيارة به ببطء، ثم قفزت إلى الطريق الضيقة التي تمر عبر أشجار الزيتون القديمة، تترنح من جانب إلى آخر. ثم اختفت أخيراً وسط غيمة غبار ساخن.

دخلت آيرين ببطء إلى الكوخ وأقفلت الباب. . ثم وكأنها كبرت قرناً في دقائق. . صعدت السلم الحجري إلى غرفتها.

* * *

أسندت اليان مرفقها على إطار النافذة متنهدة:

ـ آه من الشتاء في الميسوري. . حيذا لو يكتب أحدٌ شعراً عنه.

رفعت آيرين رأسها عن طاولة الخياطة القديمة التي تعيد إصلاحها، وابتسمت.

ـ لا يمكن. . فمن الصعب إيجاد القوافي للثلج والجليد والزمهرير!

ضحكت صديقتها وهي تدور في الغرفة، ثم تنهدت مرة أخرى.

ـ أليس هذا صحيحاً؟ لن تصدقي أبداً ما قيل عن عملية تحويل أذن الكلب إلى حقيبة حرير. . صح؟

نظرت آيرين إلى الطاولة بقلق:

ـ أتحاولين إفهامي بأن هذه الطاولة لم تعد صالحة سوى لنيران التدفئة. .؟

ـ هذا ما أخشاه صديقتي.

ـ إذن يجب أن أضع الزيت أكثر على مفاصلها.

راقبتها اليان قليلاً ثم تثاءبت:

ـ أتريدين الذهاب إلى السينما؟

ـ لا أظن هذا.

ـ أجل. . على الأرجح ليست فكرة جيدة. . فمن المفترض استمرار ثراكم الثلوج، ونعرفين سيارتي القديمة. . فكري فقط بأن عمتك وزوجها يتمتعان بشمس أريزونا فيما تتجمد عظامنا نحن هنا. .

دفعت آيرين شعرها إلى الوراء وابتسمت: أجل.

عادت اليان تتنهد:

ـ أراهن بكل شيء شرط أن أجد مكاناً لا تزال تشرق فيه الشمس. أعتقد أن الطقس حار جداً في فلوريدا، أو مكسيكو، أو الريفييرا.

ارتفع رأس آيرين بحدة:

ـ وماذا يُفترضُ أن تعنين بكلامك هذا. .؟

نظرت إليها صديقتها بدهشة:

ـ ألم أقل هذا بالإنكليزية؟ أراهن. . أن. . الطقس. . حار. . جداً. . في. . فلوريدا. .

رمت آيرين خرقة التلميع جانباً:

ـ آسفة. . لم أقصد أن أهاجمك.

ارتفع حاجبا اليان:

ـ هذا أمر طبيعي. . فأنت تهاجمينني في كل مرة أذكر فيها الريفييرا أو فرنسا.

ـ أنا لا أفعل هذا. . أنت تبالغين. . أنا فقط. .

ـ ألن تخبريني أبداً عما حصل لك هناك؟

ـ لا شيء. . ذهبت إلى فرنسا. . وأمضيت الصيف، ثم عدت. . هذه نهاية القصة.

ـ «كيف قضيت إجازة الصيف» تأليف آيرين شريدان. . يا إلهي يقدم تلاميذ الصف الثالث الابتدائي تقاريرهم أفضل من هذا!

التقطت آيرين قماشة التلميع مرة أخرى.

ـ ماذا تريدين؟ حساب كل يوم بيومه؟

ابتسمت صديقتها:

ـ قد أقبل بحساب مشاعرك وأحاسيسك بعد قضاء صيف كامل مع

غاي ريتشاردز.

احمرت وجنتا آيرين:

ـ هيا الآن اليان.. هذا ليس..

ـ بدأت المدرسة مجدداً منذ خمسة أشهر. ولم أحصل منك على أي تفسير حول ذلك الرجل.. وهذا ما يثير استغرابي يا صديقتي، خاصة لأنك قد عشت معه لفترة..

ـ أنا لم أعش معه.. فقط..

مالت اليان إلى الأمام:

ـ حسناً.. أسأت اختيار الكلمات، على الأقل أخبريني عن شكله.

انحنت آيرين مجدداً تلمّع الطاولة:

ـ صدقاً! لقد عاشرت المراهقات لفترة طويلة حتى أنك تبدين مثلهن.

نفثت الصديقة نفساً ساخطاً.

ـ اسمعوا من يتكلم.. أنا على الأقل أخرج كل ليلة لأقضي المساء مع أحد المعجبين المحليين.. وهذا ما يذكرني.. سيأخذني تيري الدرسون إلى العشاء مساء السبت، ومعه ابن عم من ديترويت، إنه طبيب، أو طبيب أسنان.. ما رأيك لو..

ـ لا.. أعني.. لا أستطيع.

ـ أعرف.. يجب عليك إتمام واجباتك كاملة. مثل غسل شعرك.. وإذابة الثلاجة.

رافقتها قليلاً وهي تفرك الطاولة بشراسة:

ـ أو تلميع هذا الشيء القديم حتى تتعب يداك.. هاي.. ألا تظنين بأن الوقت قد حان لنتكلم بالأمر؟

قطبت آيرين:

ـ أستسلم، ربما يجب أن آخذها إلى مكان تصليح الأثاث الذي مررنا به في الأسبوع الماضي.. أتذكرينه؟ لكن.. من يدري كم ستكلف؟

نظرت إليها اليان بعينين ضيقتين:

ـ بكل تأكيد لن تكلف كما يكلفني انتزاع كلمة منك.

للحظات استمرت آيرين تنظر إلى الطاولة.. ثم تنهدت، ورمت

القماشة من يدها، وجلست.

ـ حسن جداً.. ماذا تريدين أن تعرفي؟

ـ فقط ما ترغبين في قوله لي.

ضحكت آيرين:

ـ هيا الآن اليان.. لا بد أنك تمزحين، فأنت تلاحقينني وتلاحقيني منذ أشهر.. والآن بعد أن أرهقتني تتسحبين ولا تريدين سماع سوى ما أريد قوله أنا فقط؟

ـ حسن جداً.. فهمت وجهة نظرك.. اسمعي، كل ما أحاول فعله هو أنني أريد مساعدتك.

ـ تستطيعين هذا.. جهّزي الطاولة فيما أحضّر أنا ما نأكله.

ـ لقد شاهدت هذه النظرة في عينيك من قبل.. ولا يمكنك خداعي.

فتحت آيرين البراد، ونظرت إلى داخله.

ـ أية نظرة؟.. ما رأيك بسندويش جبن مسخّن؟

ـ عظيم.

أخرجت اليان الفناجين من الخزانة، ووضعتها على طاولة قديمة الطراز.

ـ وتعرفين تماماً أية نظرة أعني.

ـ شاي أم قهوة؟ أيهما؟

ـ أيهما كان.. وأتمنى أن تتوقفي عن محاولة تغيير الموضوع.

ـ أنا لا أغيّر الموضوع.. نحن نتكلم عن عشاء خفيف.. وأنا..

ـ إننا نتكلم عن تلك النظرة المرتسمة على وجهك.. هذه التي لم أشاهد مثلها إلا بعد عودتك من تيبس..

جلست اليان على كرسي.

ـ منذ متى ونحن صديقتين؟

ابتسمت آيرين وهي تدهن رقائق خبز بالزبدة، ثم تضع عليها شرائح الجبن.

ـ بما يكفي لأعرف أنك ستكرهين هذا السندويش.. أنا آسفة.. لقد نفدت من عندي الطماطم. أيمكنك القبول به؟

ـ بالتأكيد . . لكن أيمكنك أنت القبول بواقعك؟

ساد صمت مفاجيء . . التقت خلاله عيون الامرأتين، ثم قالت آيرين :

ـ أجل . . أستطيع . . هل اكتفيت؟

ابتسمت اليان بحزن :

ـ العيش ليس كل ما هناك يا فتاتي . . هذه أجمل سنواتنا، ألم يخبرك أحد بهذا؟ لا زلنا صغيرتين . . وفي فمنا كل أسناننا . . ومن المفترض أن نكون هناك . . في الخارج، نمرح ونلهو . .

ـ لكنني أمرح، فأنا مشغولة بترتيب منزلي وإصلاحه . . ولدي صفوف اللغة الفرنسية لأعلمها . . وأفكر بزيارة العمة أوليندا وزوجها العم مالكولم في عيد «الشكر» . .

ـ بالكلام عن العجوزين . . كيف حال ويندي؟

هزت آيرين كتفيها، وأدارت موقت الفرن .

ـ أعتقد على ما يرام . . تقول عمتي أوليندا بأنها عادت إلى لوس أنجلوس محاولة الوصول إلى التلفزيون .

ـ أنت لم تسمعي شيئاً عنها منذ الصيف . . صحيح؟

ـ لا . . كيف تحبين الشاي؟ مع . .

ـ آيرين . . ماذا حدث في فرنسا؟

فكرت آيرين، ها قد عدنا إلى البداية . . وارتجفت يدها وهي تصب الماء الساخن في إبريق الشاي .

ـ قلت لك ما حدث . . عملت مع ويندي في موقع الفيلم لفترة . ثم . . ثم . . هل تصدقين لو قلت لك بأنني لم أعد أذكر إذا كنتِ تحبين الحليب أم الحامض مع الشاي؟

ـ ثم سكنتِ مع . .

ـ أنا لم أسكن مع أحد . . سبق أن قلت لك هذا .

رن جرس الإنذار في الفرن، فتنهدت آيرين ارتياحاً .

ـ العشاء جاهز .

وضعت الطعام على الطاولة وتناولتاه بصمتٍ لبضع دقائق ثم تنحنحت

اليان :

ـ كيف هو شكله، غاي ريتشاردز هذا؟ أعني، يمكنك إخباري بهذا . . أليس كذلك؟

هزت آيرين كتفيها : مثله . . مثل أي رجل آخر .

ـ شاهدت صورته على غلاف مجلة «النيوزويك» . . وهو بكل تأكيد مختلفٌ عن الآخرين .

ـ إنه . . وسيم . . هل هذا ما أردت سماعه؟

ـ هل سمعت منه شيئاً؟

ربتت شفتيها بمنديل :

ـ لا . . ولا أتوقع أن أسمع . . هل اكتفيت؟

ـ وأنت . . هل اكتفيت؟

تنفست آيرين بعمق، وقالت بصوت متخفض :

ـ اسمعي . . مهما كنت تفكرين فهو بعيد عن الواقع . . لقد . . ساعدت غاي ريتشاردز في محنته، وقد بادرني بالمثل . وهذا كل ما حدث . . وأي شيء آخر سيكون من نسج خيالك المتمادي .

ـ حقاً؟ كنت هنا أراقبك ذلك المساء، يوم عرض التلفزيون مقابلة معه . . .

ـ أجل . . إنه يتسابق هذا الأسبوع في «بونس ايريس» .

ـ واعتلت وجهك تلك النظرة الكافية لتحطيم قلبي .

ـ أية نظرة؟ أنا لم . .

ـ نفس النظرة الموجودة على وجهك الآن .

وقفت آيرين تسير نحو المطبخ :

ـ نسيت الشاي . . أليس هذا سخيفاً؟

ـ لم يكن من المفترض أن يتسابق . . أليس كذلك؟ هذا ما نشرته المجلة .

ـ وما قاله الطبيب أيضاً . . لكن غاي . . لم يدع نفسه يصدق هذا . . عمل جاهداً لبناء نفسه مجدداً .

ـ و . . ماذا حدث؟

- ونجح . . ولقد ربح سباقين للجائزة الكبرى حتى الآن . . في إيطاليا وكندا . . وقد حطم آخر مرة الرقم القياسي له . .

وصمتت . . قالت اليان بصوت منخفض :

- أمر مذهل . . يبدو أنك أصبحت من المعجبين بالرياضة . أذكر لي الأيام السابقة يوم كنت أضطر للتحرش بك وأدفعك إلى الهتاف بغية تشجيع فريق بلدتنا .

تنفست آيرين بحدة :

- يا إلهي . . أنظري إلى الوقت اليان . يجب أن تسامحيني . . لدي أوراق امتحانات لأصححها . . ولن أستطيع إكمالها إذا لم أبدأ بها الآن .

نظرت اليان إلى صديقتها وتنهدت :

- بكل تأكيد . . على أي حال يجب أن أذهب . . آيرين ! إذا تركت ابنة عمتك تلك تدخل بينك وبين ذلك الرجل . . لو تركتها تأخذه منك . .

التقت عيونهما ، وقالت آيرين :

- إنها ليست غلطة ويندي اليان . . ما من أحد أخذ غاي مني . . أنا . . لم أحصل عليه أبداً . . ما من أحد يمتلك رجلاً مثله . إنه . . ملك نفسه . . إنه . .

رفعت يدها إلى فمها . . ومرت اللحظات ، ثم ابتلعت ريقها :

- اذهبي إلى منزلك اليان . . سأتصل بك غداً .

استندت بعد لحظات إلى الباب الأمامي بعد أن أقفلته . . لقد شكّت اليان بشيء طوال هذه الأشهر منذ رأتها تنزل من الطائرة محمرّة العينين . . لكنها تمكنت من تجنب أسئلتها . . حتى الآن .

أخيراً توصلت إلى مرحلة كانت تقضي فيها الصباح كله أو كل بعد الظهر دون التفكير بغاي ريتشاردز . . لكن دون كليهما معاً . . وأبداً أبداً ، دون الليل كله . لكن رؤيته على التلفزيون وسماع صوته المألوف غيّر كل هذا . وفقدت شجاعتها وهي حتى الآن لم تستفق بعد .

الذكريات أشياء هشة . . مثلها مثل كؤوس الزجاج . . وهي تدرك هذا أكثر من أي شخص آخر . . أخذت صور والدها ووالدتها اللذين فقدتهما بسرعة ، تتلاشى مع مرور السنوات .

أغمضت آيرين عينيها . . هذا لن يحصل هذه المرة . . يجب أن تدوم ذكرياتها مع غاي إلى الأبد .

كانت على يقين بأن اليان تدرك تماماً مدى حبها لغاي ، وسبب خسارته أمام ويندي . . لكنه الغلط نفسه لأن علاقته بابنة عمتها لم تدم طويلاً . . رغم أن ويندي استفادت من تلك الفرصة لتفاجئها قدر استطاعتها . فقد وصلت منها بطاقات بريدية عقب عودتها إلى الوطن ، تقول ويندي فيها ، وبخطها الكسول : القد أصبح غاي صحيح الجسم . . لقد اشتريت له عكازاً من خشب الجوز والفضة . . أنيقة جداً . . وسنذهب إلى إيطاليا لسباق الجائزة الكبرى . . أتمنى لو كنت هنا . . حبي . . حبي . . ويندي » .

أرجعت رأسها إلى الوراء تغمض عينيها لتعيد شريط ذكرياتها . . كان غاي قد تركها بسرعة ، بحيث أن ما حدث بعد هذا لم يكن أكثر من ضباب في ذاكرتها . . لقد ذهبت إلى غرفتها ، وفتحت حقيبتها لترمي ملابسها فيها ، ثم صعدت السيارة المؤجرة وانتهى بها الأمر في نيس . وما إن استقرت في غرفة استأجرتها حتى أخذت الهاتف لتتصل بالدكتور موريت .

بدا الجراح مندهشاً لسماع صوتها :

- آه مدموزيل شريدان . . سألت عنك . . لكن السيد ريتشاردز قال إنك تركت العمل وانك لم تعودي موظفة عنده . . !

موظفة عنده . . قطعت الكلمات قلبها كنصل السكين ، لكنها تماسكت وبادرته بالسؤال :

- هل انتزعت الجبيرة ؟

- نعم . . كما هو متوقع آنسة .

- و . . كيف حال ساقه ؟

سمعت تنفس الدكتور العميق : كما هو متوقع كذلك .

- هل هناك . . عطل دائم ؟

- أجل . . بالطبع . . ألم أقل هذا ؟ على أي حال استعادة صديقك لعافيته أمر مذهل . . ساقاه أصبحتا أقوى مما توقعت .

- أجل ، قال إنهما ستكونان هكذا .

لان صوت الطبيب:

ـ إنه تشخيص مشكوك فيه آنسة.. لكنه مثير للاهتمام وأظن أن السيد ريتشاردز مدين لك بالكثير ليشكرك عليه.

تبللت عيناها بالدموع، وقالت:

ـ لا.. ليس لديه شيء ليشكرني عليه. لقد فعل كل هذا بنفسه.

واستفاقت من ذكرياتها الأليمة لتذرف الدموع مجدداً.. فهي لم تشاهد غاي بعد ذلك.. وأمضت آخر يوم لها في نيس تسير ببطء على الشاطىء.. تنتظر موعد رحلة عودتها.

تنهدت تفتح عينيها.. كانت تأمل أن يكون الوطن مرفأ الأماني.. ولقد كان هذا. معظم الوقت.. ثم تعود لتتذكر كيف انتهى كل شيء، وكيف تحول صباح مليء بالوعود إلى رماد حين نظر إليها بتهمها بعد أن قالت بأنها تعامله بدافع الشفقة. هزت رأسها إذ لا جدوى من أن تستسلم للإشفاق على الذات..

وقفت ببطء تفك أزرار قميصها وهي تتجه إلى غرفة النوم: دوش ساخن، كوب حليب دافىء، ثم تراقب التلفزيون إلى أن تنعس.. تنتظرها أوراق في حقيبتها للتصحيح إلا أنها ليست مستعجلة.. ليس هذه الليلة على الأقل.

رن جرس الهاتف وهي تخرج من الدوش.. تنهدت ودست ذراعيها في أكمام الروب، وأسرعت إلى غرفة النوم ترفع السماعة إلى أذنها.

ـ آلو.. البان؟

ضحكت صديقتها:

ـ هل أنت قارئة أفكار؟

ـ كنت سأتصل بك.. أردت الاعتذار..

ـ لا أبداً.. إذا كان هناك من يجب أن يعتذر، فسيكون أنا.. هل أنت بخير؟

ـ بخير.. كنت على وشك أن أصنع لنفسي كوب حليب وأشعل التلفزيون.

ضحكت البان:

ـ تبدو لي أمسية مثيرة.. اتصلت بي لوسي كولر وقالت إن هناك فيلماً رائعاً في نادي السينما.. ما رأيك لو أمرّ لآخذك وأنا في طريقي إلى هناك؟

تنهدت آيرين: أنا بخير.. حقاً.

ـ يمكننا أن نتناول السندويشات فيما بعد، أو البيتزا.

ابتسمت:

ـ تبدو الدعوة مغرية.. لكنني سأتخلى عنها.

ـ واثقة؟

ـ قطعاً.. استمتعي بوقتك، وارسلي بتحياتي إلى لوسي نيابة عني.

تردّد البان كان ملموساً:

ـ حسن جداً.. أحدّثك غداً.

ابتسمت آيرين وهي تعلق السماعة، ووقفت.. كان لديها إحساس أنها ستسمع صوت البان مرة أخرى قبل أن تنقضي السهرة. سارت حافية القدمين إلى المطبخ تضيء المصابيح وهي تمر بالغرف المظلمة.. كانت البان أكثر من صديقة طيبة في الأشهر التي مرت. لم تلق الكثير من الأسئلة.. على الأقل حتى اليوم.. دائماً تبتسم، أو تقترح شيئاً لتمرير الوقت.. لكن آيرين كانت ترغب أحياناً بالوحدة، والليلة إحدى تلك الأوقات.. لم يكن من المجدي أن تقاوم كل الذكريات المزدحمة، مهما كانت تحزنها.. أحياناً..

رن جرس الباب قاطعاً حبل أفكارها فوضعت كوب الحليب من يدها مبتسمةً تهز رأسها متجهة إلى غرفة الجلوس. قالت ضاحكة وهي تفتح الباب:

ـ البان.. أنت أوراق مكشوفة.. كنت أعرف أنك سوف...

شهقت مصدومة.. وتلاشت كلماتها منها.. كان يحدق بها الرجل الواقف بالباب.. ترتسم تعابير غامضة وسوداء على وجهه تماماً مثل عينيه.

ـ مرحباً آيرين.
انتظر غاي.. ثم تقدم خطوة قائلاً بنفاذ صبر:
ـ حسناً.. ألن تطلبي مني الدخول؟

* * *

٧ ـ ربما كان حلماً

ـ غاي؟
يا لهذا السؤال الغبي.. بالطبع غاي.. وماذا يفعل هنا؟ ماذا يريد؟ جالت دزينة من الأسئلة داخل رأسها.. لكن كل ما تمكنت من فعله في النهاية هو أن تتراجع إلى الوراء وتدعه يدخل.
تجاوزها مدخلاً معه الهواء البارد.. نظرت إليه ثم أقفلت الباب وراءه بعد أن استندت إليه.. غاي.. غاي هنا.. في مانت لويس.. هذا مستحيل.. إنه.. كان.. في «بونس ايريس» يستعد للسباق.. إنه..
قالت لنفسها: قولي شيئاً.. لأجل السماء لا تقفي هكذا!!
ـ أتريد.. بعض الشاي؟
هل قالت هذا حقاً للرجل الذي لم تره منذ خمسة أشهر؟ والذي وصل غرفة جلوسها، وها هي.. تعرض عليه تناول الشاي وكأنه...!
ـ أجل.. أريد شيئاً حاراً.. كنت أقود منذ ساعات، وأريد شيئاً أدفىء به قدمي.
يقود؟ من بونس ايريس؟ اتجهت عيناها إلى ساقيه.. ورفرفتهما.. لا عكاز معه.. لا يحمل عكازاً.. وهو واقف يسير.. و..
أجبرت عينيها لتلاقي عينيه.
ـ أنمانعين لو جلست؟
ـ لا.. لا.. بالطبع لا.
تقدمته بسرعة لتبعد الطاولة التي كانت تحاول إصلاحها.. ثم استقامت، واستدارت إليه، لتراه في الوقت المناسب يتقدم نحو الصوفا.

استدار قليلاً رأساً على عقب.. إنه بعرج.. لم تلحظ هذا في البداية، لأنها كانت مذهولة بظهوره، لكنها ترى هذا الآن.. كان العرج خفيفاً، لكنه موجودٌ.. وكان يبدو.. رهيباً.. متعباً.. لا.. بل مرهقاً، ونحيلاً.. و...

التقت عيناه بعينيها.. فأحست بانقطاع أنفاسها، ثم استدارت تسير بسرعة نحو المطبخ قائلة: سأحضر الشاي.

في كنف أمان الغرفة الأخرى.. أسندت آيرين نفسها على الجدار وتنفست بارتجاف وعمق.. هل هي تحلم؟ هل استحضر قلبها اليائس وفكرها الحائر صورةً لغاي؟ ربما.. ربما ستستيقظ بعد فترة وحدها في السرير، وكل هذا سيكون حلماً متلاشياً.

ابتلعت ريقها بصعوبة.. مهما يكن غاي الآن.. خيالاً أم حقيقة، فهو يبدو بحاجة إلى شيء ساخن يشربه.. وهي كذلك.. ارتجفت يداها وهي تحضر الشاي ثم تصبه.. ثم زفرت أنفاساً عميقة منتظمةً، وعادت حاملة الصينية إلى غرفة الجلوس.

كان يجلس على الصوفا.. يتكيء رأسه إلى الخلف.. وعيناه مغمضتان.. إحدى ساقيه ممددة على الطاولة الصغيرة قربه.

تنحنحت.. وقالت بصوت منخفض:

ـ غاي؟ جئتك بالشاي.

تلامست أصابعهما وهو يأخذ الفنجان منها.. فسَرَتْ قشعريرة في أوصالها وكأنها الصدمة الكهربائية وقفزت عيناه إلى عينيها.. وقالت لنفسها: أنظري بعيداً، أنظري بعيداً إذا كنت قادرة.

قالت تجلس بحذر في كرسي قربه: ظننتك في الأرجنتين.

ـ كنت.

انتظرت أن يقول المزيد.. ثم تنحنحت لتكسر الصمت:

ـ كان عندك موسمٌ رائعٌ.. الأول في سباقين، و... و...

لماذا يحدق بها بهذه الطريقة؟ لم تظهر أية تعابير على وجهه، لا شيء يمكنها أن تقرأه.. ماذا يريد؟ لماذا هو هنا؟ قال: تبدين مرهقة..

ارتفعت يدها إلى شعرها الملبّد ثم إلى مقدمة ثوبها.

ـ لم أكن أتوقع وصول أحد.

لوّح بيده:

ـ أعني أنت.. لقد خسرت من وزنك.. وهناك دوائر حول عينيك.

ارتفع ذقنها:

ـ وأنت لست مثالاً للأصحاء، ذوي الجمال.

كانت هذه كذبة.. إنه رائع.. وسيبقى دائماً جميلاً.. لكنه الآن يبدو نحيلاً.. ومتعباً.. تشوّقت لأن تتقدم إليه، أن تمسح عنه الخطوط الحزينة التي ترتسم بين حاجبيه.

ارتفعت ابتسامة متصلبة إلى شفتيه.

ـ أوافق على هذا.

ورفع الفنجان إلى فمه وارتشف منه بسرعة عدة مرات.. ثم أنزل ساقه إلى الأرض:

ـ كيف كانت أحوالك آيرين؟

أجفلت:

ـ هل قطعت كل هذه المسافة من بونس ايريس لتسأل عن صحتي؟

ضحكت:

ـ على الأقل هذا لم يتغير. لا زلت تعرفين كيف تصلين إلى جوهر الموضوع مباشرة.

وقف متجهاً نحو المطبخ:

ـ أتمانعين لو أصب قليلاً من الشاي بعد؟

وقفت بسرعة قلقة:

ـ سأفعل هذا بنفسي.. اجلس أنت، و...

لكنه وصل قبلها إلى المطبخ، والتقط الإبريق، قائلاً بحدة:

ـ لا أحتاج إلى من يدللني..

اشتد ضغطها على فمها وهي تراقبه يضع السكر.. تضيء الأنوار الساطعة القوية وجهه بوضوح.. بدا لها أسوأ مما ظنت. هناك كدمات سوداء على خديه وذقنه.. تخفي تحتها لوناً رمادياً شاحباً. ماذا يفعل هنا بحق الله..؟

سألت: ماذا تحتاج إذن؟

التفت إليها: وماذا يفترض بهذا أن يعني؟

ابتلعت ريقها:

- ما قلته بالضبط.. لا تبدو بصحة جيدة.. وها أنت تظهر في غرفة جلوسي و... هل أنت مريض؟ هل ساقك...؟

وضع فنجان الشاي على رف المغسلة:

- وهل أنت مهتمة؟

صوته بارد.. أرسلت لهجته البرودة في عروقها.. أرادت أن تقول لا.. وبنفس برودته.. لا، أنا لا أهتم البتة.. إذا كنت قد جئت إلى هنا تطلب مساعدتي.. بإمكانك الذهاب إلى الجحيم!

ارتاحت كتفاها.. إنها فكرة مريحة لذيذة.. ومرضية لعنفوانها.. لكنها كذبة، إنه يحتقرها وقد أوضح هذا بما يكفي.. ومع ذلك، إذا كان يتألم، إذا كان يحتاجها..

لا.. صحيح أنها تحبه.. لكنها لن تساعده، ليس هذه المرة.. فالثمن مرتفع جداً.

استدارت عنه.

- إذا انتهيت من ارتشاف الشاي، فالأفضل لك أن..

قطع المسافة بينهما بسرعة، وأطبقت يده على كتفها.. أدارها نحوه، بعينين مسودتين خطيرتين:

- آبرين.. قطعت ثمانية ساعات ونصف في طائرة إلى ميامي، والله أعلم كم ساعة في سيارة مؤجرة...

رفعت نظرها إليه:

- هل من المفترض أن تكون هذه غلطتي؟

أجل.. اغضبي منه.. تذكري كيف عاملك في آخر يوم لكما معاً.. فهذا أفضل.. من.. من..

- ألن تسأليني لمَ أنا هنا؟

أخذت نفساً عميقاً وقالت بهدوء:

- حسن جداً.. ما سبب قدومك لزيارتي؟

- كنت سأستقل الطائرة.. وكنت سأصل إلى هنا منذ ساعات.. وما كانت ساقاي ستذكراني أن عمرهما مئة سنة..

- إذن، لماذا لم تفعل؟ ثم توقف عن إظهار المسألة وكأن الذنب ذنبي في مغادرتك الأرجنتين، وبأنني السبب في قيادتك كل هذه المسافة اللعينة.. وأنها غلطتي أنك..

قال حانقاً:

- الطيران سريع، وأردت الوصول إلى هنا.. لكن ليس قبل.. قبل أن.. يا إلهي! لقد أعدت هذا في رأسي مئات المرات في آخر ألف ميل قطعته إلى هنا.. خططتُ لكل شيء.. ماذا سأقول.. وكيف سأقوله..

تنفس بحدة:

- ولهذا جئت بالسيارة.. احتجت الوقت لأرتب الأمور.. لكن..

- ترتب ماذا؟ كلامك مبهم!

هز رأسه:

- أجل.. أعرف أنني.. اسمعي.. ربما.. ربما الأفضل أن أغادر.. فأنا.. ما كان يجب أن أدخل عليك هكذا.

- لا!

أجفلتها صيحة اليأس بقدر ما أجفلته.. ولم يكن هذا ما أرادت قوله.. كانت ترغب في طرده.. وابتلعت ريقها بقوة:

- أعني.. أنك عانيت لتقطع رحلة طويلة.. ومن الأفضل..

ارتجف صوتها ثم توقف.. ثم همست:

- لا تذهب.. ابقَ قليلاً.. لمجرد.. مجرد..

استدارت عنه بسرعة، ورفعت يديها لتخفي وجهها.. أوه.. يا الله! أين هي كرامتها؟ أين تصميمها على البقاء مسيطرةً على نفسها.. وأين إصرارها على إخفاء الألم عبر حنايا قلبها المجروح..؟

ضغطت يداه على كتفيها:

- ولماذا أبقى؟ لم تنتظري كثيراً لتتخلصي مني في آخر مرة تناقشنا فيها.

- هذا غير صحيح.. أنت من..

أدارها نحوه:

- أريد بعض الردود، وأريدها الآن.

- حسن جداً.. لن تحصل على أية ردود. ابتعد عني غاي.. عد إلى بونس ايريس، و..

- توسلت إليّ منذ دقائق لأن أبقى..!

- لم أتوسل.. أرجو أن تصنع لي معروفاً.. ابتعد.. اذهب من هنا.

- انظري إليّ.

- لا.. لأجل الله.. ألم تذلني بما فيه الكفاية؟ أيجب أن..؟

أمسكت يده وجهها: قلت انظري إليّ آيرين!

كان ضغط أصابعه صعب الاحتمال.. فارتفع رأسها ببطء.. لكنها لم ترفع عينيها.. ومهما كانت لعبته التي يلعبها الآن، فهي الأكثر قساوة.. ولن تفعل.. لن تنظر إليه.

- آيرين.. آيرين حبيبتي.. انظري إلي.. أرجوك.

رفعت عينيها إليه ببطء وببطء شديد، وتسارعت دقات قلبها.. كان يبتسم.. ابتسامة حلوة، مذاعبة.

- غاي؟

علقت همستها في الهواء.. تتراقص معها مئات من الأسئلة.. ورده على كل أسئلتها بأن احتضنها بين ذراعيه.

ارتجفت.. هذا جنون.. ما الذي يجري لها؟ غاي رجل متألق تملأ حياته الشهرة والمجد، لن يترك «الفرانك بري» ويطير عبر القارة ثم يقود آلاف الأميال ليضم امرأة عاشت معه منذ زمن بعيد خلال صيف في فرنسا..

فتحت عينيها ببطء وهو يبعدها قليلاً عنه ليمسك بوجهها بين يديه.. ويبتسم مجدداً.

- لم ترديّ على سؤالي بعد..

- لست مضطرة للإجابة.

انقلبت أساريره إلى محمل الجد:

- بلى ستجيبين.

- لست مضطرة ولن أفعل..

قاومته بشدة، لكنه شدها إلى ذراعيه مجدداً.. وقالت لنفسها لا.. لا تبادليه العناق.

لكن فات الأوان.. كانت تذوب في أحضانه.. تفقد نفسها ويداه تنسلان إلى كتفيها.. وضمها إليه.. فرفعت ذراعيها تشبكهما خلف عنقه.. مر وقت طويل منذ أن عانقته هكذا.

علق صوت مخنوق في حنجرتها، نصفه بالٍ ونصفه ضاحك.. ربما هذا حلم.. ربما.. ربما هي في الواقع تنام في سريرها.. تتصور كل شيء.

- آيرين!

فتحت عينيها ببطء.. أمسكها غاي بكتفيها وأبعدها عنه. كان ينظر إليها وابتسامة غريبة تتراقص على وجهه:

- إنه صحيح؟ أليس كذلك؟

- ما هو الصحيح؟

لكنها كانت تعرف.. تعرف.

- أنك تحبينني.

ارتجف فمها: لا.. لا أحبك.

ضحك منتصراً:

- بلى.. وكنت تحبينني طوال الوقت..

هزت رأسها:

- لا.. ولا أدري لماذا تفكر بشيء سخيف كهذا.

تحركت يداه تمسكان بوجهها مجدداً:

- أستطيع إعطاءك سبباً جيداً.. لأنني أحبك.

وقفت الدنيا ثابتة بلا حراك.. كانت تخاف أن تتحرك.. خائفة أن تتنفس.. ولو فعلت، فإن اللحظة السحرية ستضيع.. تملكها فجأة ابتهاج مجنون.

قالت وصوتها يرتجف قليلاً:

- يجب أن أحذرك.. إذا كنت حلماً غاي ريتشاردز.. سأغضب

كثيراً حين أستفيق.

ضحك:

- لو أنني حلم.. فهو أول حلم أسمع به، وساقاه تكادان تهويان في أية لحظة.

- أوه.. غاي نسينا ساقيك المسكينتين..

أمسكت يده تجره إلى الكنبة في غرفة الجلوس.. فغرق فوقها وجذبها معه وقال:

- لا تهتمي بساقاي.. يتوجب على المرأة أن تقوم برد لائق حين يصرح لها الرجل عن حبه..

ابتسمت: أحبك.

ثم رفعت رأسها إلى الوراء تكرر صائحة:

- أحبك.. أحبك!

ضمها إليه بصمت، ثم قطب:

- لماذا لم تعترفي لي بحبك من قبل؟

- ولماذا لم تقل أنت؟

- لكنني قلت لك.. في تلك الليلة التي سبقت فك الجبيرة عانقتك بطريقة تخبرك بحقيقة مشاعري تجاهك.. ولكن حين سألتك..

- سألتني ماذا؟

- ألا تذكرين.. سألتك أن تعترفي بالحقيقة..!

خرج نفسها بسرعة من رئتيها.. متذكرة قوله في الماضي: أخبريني.. أراد الاكتفاء بسماع الحقيقة.. ولقد أساءت فهمه.. ظنت.. ظنت.. هزت رأسها:

- لم أفهمك.. أنا.. أنا.. ظننتك تتفاخر.

ارتفع حاجبه.

- أجل.. وهذا أيضاً.. ما الذي حدث؟ لماذا تركتني أعتقد أنك بقيت معي لمجرد الإحساس بالشفقة؟ وكأنك تقومين بالواجب تجاهي؟

تنهدت:

- كنت حمقاء. ظننتك تشعر بالامتنان لي فقط.

- بالطبع كنت ممتناً لك. لقد أعدتني إلى الحياة.. حبك كان سبب جهدي لأستعيد عافيتي..

مررت لسانها على شفتيها:

- ثم.. ثم سمعتك تتحدث بالهاتف مع ويندي.. وضربت لها موعداً..

تنهد غاي.

- لقد اتصلت ويندي بعد أن حدد لها هازرد موعداً لنزع الجبص ذلك اليوم.. أراد بعض المعلومات مني.. وعرضت عليّ أن تأتي لتأخذني. وأعتقد أنها قررت أن ترى بنفسها ما إذا كنت على حالي أم تغيرت.. كانت الطريقة الوحيدة للخلاص منها، هي الموافقة على لقائها.. وأظن أنني كنت غبياً ولم أقل لك.. ولأنني كنت أعرف مسبقاً كم تجعلك متوترة..

- كان سبب توتري أنني كنت أعرف.. أعرف أنكما كنتما على علاقة.

هز رأسه:

- لم تكن هكذا أبداً. أوضحت ويندي رغبتها بي.. وكانت قد نجحت مع المخرج.. والبطل الثاني للفيلم.. لكنني لم أهتم بها.. كانت تهوى جمع الرجال.. وأنا كنت قد سئمت هذا النوع منذ زمن بعيد.

- مع ذلك.. كنت قد اتصلت بالتاكسي.. وخططت أن تتركني قبل أن تذهب إلى نيس.

- أجل.. كنت سأنتزع الجبص.. وكانت تلك لحظة حاسمة.. عليّ أن أواجهها لوحدي..

- لوحدك؟ لماذا لوحدك؟

- لنفس السبب الذي منعني من مصارحتك بحبي الكبير لك.. كنت خائفاً أن أبقى مقعداً.. ولم أرغب في أن أربطك مع نصف رجل.

ترقرقت عيناها بالدموع.. وهمست:

- أنت أحمق.. غاي ريتشاردز.. ألا تعرف أنني كنت سأحبك ولن

أتخلى عنك مهما كانت النتيجة؟

ابتسم، وأعاد لها خصل شعرها عن صدغيها:

- لطالما حلمت بك في الأشهر الماضية.. كرهتك وأحببتك في آن واحد. وكان هذا يقتلني.. وبقيت أفكر كيف تحملتني كل تلك الأيام الرهيبة دون أن تهتمي؟

- أوه.. غاي.. لكنني كنت أهتم.. وأحببتك.

همس:

- أصبحت أعرف هذا الآن.. وأتمنى لو أستطيع القول إنني توصلت إلى هذه المعرفة بالذكاء حبيبتي.. لكن في الحقيقة أنني كنت أستلقي كل ليلة صاحياً أفكر بك، فجأة تذكرت ما الذي حدث قبل الحادثة تماماً.. حين كنا معاً

تلاشت ابتسامتها:

- كم كرهتني يومها. لقد تحطم قلبي حين لمحتُ نظرتك القاسية التي تنمّ عن الاحتقار في عينيك.. ثم، مرة أخرى ذلك الصباح الأخير في الكوخ، ارتسمت نفس النظرة الرهيبة على وجهك.. لا.. لا تحاول أن تفسر لي شيئاً.. فمهما كانت.. فقد انتهت.. ولا أريد أن أعرف شيئاً عنها.

قبّل راحة يدها:

- لكنك مخطئة حبي.. أنا لم أكرهك أبداً.. أجل.. رأيت الاحتقار على وجهي ليلة الحادثة.. لكنه احتقار لنفسي. كنت أنوي إغواءك.. ولهذا جئت بك إلى الفندق.. لكنني لم أستطع أن أدخلك إليه.. مع أنني كنت أعرف بأنك ستفعلين.

- كنت سأدخل غاي.. فقد كنت قد وقعت في حبك، مع أنني لم أعترف بوهمها لنفسي.

- لقد انسجمت معي بين ذراعي وكأنك.. وكأنك كنت تنتظرين هذا طوال حياتك.. وعانقتني وكأنك تريدين أن تكوني لي إلى الأبد.

هزت رأسها:

- أجل.. أذكر هذا.

- في الليلة الأخيرة في الكوخ. عرفت أنني ارتكبت غلطة قادحة. أيقنت أنك أحببتني، وأنك أردتني حتى قبل أن أصاب.. وقبل أن تصبحي ملاك الرحمة لي.. واكتشفت بأن الشفقة لم تكن دافعك نحوي..

ردت آيرين ابتسامته:

- لقد أحببتك دوماً.. بطريقة أو بأخرى، أظن أنني أحببتك طوال حياتي.

اشتدت ذراعاه حولها:

- لقد قلت لك أشياء رهيبة في ذلك اليوم الأخير.. ولم أكن أعني أياً منها.. كل ما في الأمر هو أنني أحسست بقلبي ينحطم ألماً

وضعت ذراعيها حول عنقه، وضغطت جسمها على جسمه

- وأنا تفوهت بأشياء سخيفة.. إذ لا دخل لحوفري برغبتي في مساعدتك على الشفاء.. فعلت هذا لأنني أحبك

ابتسم:

- سأسامحك إذا سامحتني.. فما رأيك؟

ضحكت آيرين، ورفعت رأسها تنظر إليه:

- لا أدري.. ربما ستحتاج إلى وسيلة ما لإقناعي.

ابتسم بدوره:

- ربما نستطيع التوصل إلى حل ما.. ولنستطيع البدء في المفاوضات الآن.

- لكنني أحذرك.. أنا صعبة المراس في إجراء المفاوضات.

- لن تصلي إلى شيء دون موافقتك على قواعد أساسية.. أولاً.. يجب أن تعديني أن تلتزمي بي بالرغم من أنني قررت اعتزال السباق.

خفق قلبها:

- تعتزل؟ أوه.. غاي.. كم أنا مسرورة.. أعني، أعرف أنك تحب السباق.. لكنني كنت قلقة جداً عليك في الأشهر الأخيرة.

عانقها طويلاً، ثم همس:

- الجزء التالي من اتفاقنا معاً.. هو أن توافقي على الزواج بي.

أشرقت وانتعت عيناها